الفصل الخامس والخمسون

الحروب

ترك المصريون والآشوريون والبابليون واليونان والرومان وغيرهم آثاراً كثيرة ، فيها صور معارك وأسلحة ومعدات وجنود مقاتلين أو مستأسرين أو منتصرين ، أفادت الآثاريين والعلماء في تكوين رأي في حروب تلك الأمم والآلات التي استعانت بها في قتالها . أما الجاهليون فلم يتركوا ، ويا للاسف ، إلا نزراً يسيراً من الآثار فيه صور حروب أو جنود أو معدات قتال ، لهذا صار علمنا بالحروب عندهم مستمداً من تلك النصوص القليلة ومن نصوص معدودة وردت في الآثار الآشورية أو البابلية وفيها إشارات الى العرب ، ومن موارد أعجميـــة مكتوبة تحدثت عن حروب وقعت مع العرب ، ومن الموارد الاسلامية .

ولفظة (الحرب) ، وتجمع على حروب ، هي اللفظة الشائعة المعروفة عند الجاهليين للخروج لمحاربة العدو والاصطدام به . وترادفها لفظة (ضر) وتجمع على (اضرو) في اللهجات اليمانية[1] . وهناك لفظة أخرى هي (غزو) وتعني الخروج لمحاربة العدو[2] . فهي في معنى الحرب والغزو . وترد في اللهجات العربية الجنوبيـــة أيضاً[3] . ويراد بـ (غزت) ، غزوات في عربيتنا ، أي في حالة

---

١ تاج العروس (١/٢٠٥) ، اللسان (١/٣٠٢) ، راجع السطر الخامس من النص الموسوم
Halevy 149, REP. EPIGR. 4624, II, p. 276, Jamme 576, 577, Mahram, p. 447.

٢ الاصفهاني : المفردات (ص ٣٦٦) .

٣ Jamme 586, Mahram, p. 445.

الجمع[1] . وبـ (غزوي) غزوتين اثنتين[2] . وأما لفظة (هغرو) فتعني أغاروا على قوم ، والغارة هي (هغر) في العربية الجنوبية[3] .

وترد لفظة (حربت) (ح ر ب ت) بمعنى معركة ، وحرباً واحدة في اللغة السبئية . وأما (حريب) فتعني الحروب والمعارك ، أي جمع (حرب)[4] . وأما (حرب) فتعني المحاربة وحارب والحرب[5] .

وتطلق لفظة (ضبا) في السبئية بمعنى الحرب ، وبمعنى إعلان الحرب أيضاً . ووردت لفظة (ضبات) ، بمعنى مقاتلين ومحاربين[6] . وترد لفظة (تادم) ، بمعنى الشروع في قتال والاستعداد لحرب[7] .

ويقال للحرب (ضرر) في اللحيانية . أما لفظة (الحرب) ، فتعني السطو والسرقة ، بالإضافة الى معنى الحرب التي تعني الخصام والقتال[8] .

ويعبر عن لفظة قاتل بلفظتي (سبا) و (جنب) في السبئية[9] . وتؤدي لفظة (حرب) هذا المعنى أيضاً ، إذ أنها تعني حارب[10] . و (جنب) ، بمعنى قتال وتعارك وتحارب .

ويقال للحرب (حرب) في اللهجة الصفوية ، أي على نحو ما نجده في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم .

ويعبر عن الحملة أو الغزوة بلفظة (برث) في السبئية[11] . ويقال لها (خرجت) أيضاً . ويراد بـ (خرجت) ثورة كذلك[12] . ويعبر عن الحملة والغزوة بلفظة

---

١ Jamme 586, Mahram, p. 445.
٢ Jamme 577, Mahram, p. 445.
٣ Mahram, p. 433.
٤ Jamme 575, 577, 650, 658, 665, Mahram, p. 436.
٥ Mahram, p. 436.
٦ Jamme 555, 577, 579, 581, 635, 636, 658, Mahram, p. 446.
٧ Jamme 644, Mahram, p. 447.
٨ راجع النص ٤١ و ٨٤ من كتاب : W. Caskel, 97, 118.
٩ Jamme 597, Mahram, p. 430.
١٠ Mahram, p. 436.
١١ Jamme 561 bis, 578, 635, Mahram, p. 430.
١٢ Jamme 665, 712, Mahram, p. 437.

(منشا) في بعض الأحيان[1] . ويعبر عنها بلفظة (مسبا) (مسبأ) كذلك[2] . كما يقال (مقرن) أيضاً[3] .

والعرب تقـــول : الحرب غشوم ، لأنها تنال غير الجاني[4] . وتصيب أناساً لا علاقة لهم بها ولا صلة ، فهي لا تعرف التفريق بين الجاني ومن لا ذنب له[5].

وقد عرف علماء اللغة الجيش بأنه الجند ، أو جماعة الناس في الحرب، والجمع جيوش[6] . وقالوا الجيش : العسكر[7] . فالمراد بالجيش اذن الجماعـــة المقاتلة التي تخرج للقتال . وترد لفظـة (جيش) في العربيات الجنوبية كذلك . وتجمع على (اجيش) (أجيش) فيها ، أي في مقابـــل (جيوش) و (الجيوش) في عربيتنا[8] .

ويذكر علماء اللغة ان الجيش واحد الجيوش ، ويراد به جماعـــة الناس في الحرب[9] .

وترد لفظة (خمس) (خميس) في العربيات الجنوبية بمعنى الجيش[10] . وترد في عربية القرآن الكريم كذلك . فقد ورد أن الخميس الجيش،أو الجيش الجرار، أو الجيش الخشن . وذكر بعض علماء اللغة ان العرب سمت الجيش خميساً لأنـــه مكون من خمس فرق : المقدم والقلب والميمنة والميسرة والساقة[11] . وقالوا : بل سمي الجيش خميساً لأنه يخمس فيه الغنائم[12] . والظاهر ان الأصل في (الخميس) الجيش المنظم الكبير الذي يحارب بإمرة وبنظام . وتجمع لفظة (خمس) أي (جيش)

---

١ Jamme 643, 644, Mahram, p. 440.

٢ Jamme 665, 750, Mahram, p. 440.

٣ Jamme 578, 586, Mahram, p. 441.

٤ العقد الفريد (١/١١٠) (لجنة) ٠

٥ الدينوري ، عيون الاخبار (١/١٢٧) ٠

٦ لسان العرب (٦/٢٧٧) ، تاج العروس (٤/٢٩١) ٠

٧ لسان العرب (٤/٥٦٨) ٠

٨ Jamme 616, 635, 649, 665, 577, Mahram, p. 430.

٩ اللسان (٦/٢٧٧) ، تاج العروس (٤/٢٩١) ٠

١٠ Nami 71, 72, 73, Le Muséon, 1967, 3-4, p. 470, Mahram., p. 437.

١١ اللسان (٦/٧٠) ، تاج العروس (٤/١٤٠) ٠

١٢ اللسان (٦/٧٠) ، تاج العروس (٤/١٤٠) ٠

في العربية الجنوبية على (اخمس) أي جيوش[1] .

ويعبر عن الجيش بلفظة أخرى هي : عسكـر و (العسكر) . وأما الموضع الذي يعسكر فيه فهو (المعسكر)[2] .

ويطلق الجاهليون على الجيش الكثير الذي لا يسير إلا زحفاً من كثرته(الجرار) ويطلقون على الجيش العظيم (الجحفل)[3] . ويقولون (جيَّش الجيش) و(جيَّش فلان الجيوش) للتعبير عن التعبئة وتحضير المحاربين لقتال العدو[4] .

وللعرب آداب وقواعد في الحرب،يطلبون من المحاربين اتباعها لكسب الحرب . قيل لأكثم بن صيفي : صف لنا العمل في الحرب ، قال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، فلا جماعة لمن اختلف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، فتثبتوا ، فإن أحزم الفريقين الركين ، ورب عجلة تعقب ريثاً ، وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل ، وتحفظوا من البيات[5] . وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما ترونهم خرساً لا يتكلمون،يتلمظون تلمظ الحيات[6] .

و (المعسكر) هو موضع تجمع العسكر وموضع نزولهم فيه . ويقال له (حيرت) (حيرة) في السبئية[7] .

وتقول العرب : إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة . واعتبر مـــن ذلك أن من يقتل مُدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً[8] . وتقول أيضاً : الشجاع موقّى ، والجبان مُلقّى[9] . فاستقبال الموت عندهم،خير من استدباره . ولم يكونوا يهتمون بالكثرة قد اهتمامهم بالألفة بين المحاربين ، وبالعمل يداً واحدة وكأنهم بنيّة مرصوصة . قيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنّا مئـــة ، لم نكثر فنتكل ، ولم

---

١ Mahram, p. 437, Jamme 576, 635.
٢ اللسان (٥٦٨/٤) .
٣ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٣) .
٤ شمس العلوم ، الجزءالاول، القسم الثاني (ص ٣٧٦ وما بعدها) .
٥ العقد الفريد (١١٣/١) ، الدينوري ، عيون الاخبار (١٠٨/١) .
٦ المصدر نفسه
٧ Jamme 576, 631, Mahram, p. 436.
٨ العقد الفريد (١١٦/١) .
٩ المصدر نفسه

نقل فنذل[1] .

وللحرب عنـد الجاهليين أسباب عديدة ، يدخل في ضمنها ضنك العيش في البادية مما يحمل القبائل على التناحر والتقاتل فيما بينها للحصول على الماء والكلأ ، وهما عماد الحياة في البادية ، أو الحصول على غنيمة[2] . ويعبر عن هذه الحروب بـ (الغزو) . والواحدة (غزو) . وهي تعتمد عـلى مبدأ المباغتة في الغالب . أما الحروب، فإنها الحروب الكبيرة التي تقع بين دول وحكومات . كما أن الغارة، هي غزو مفاجيء يفاجيء به العدو عدوّه ، ليأخذه على غرة ، ولينتزع منه ما يجده عنده من مال .

وقد كانت القبائل تغير بعضها على بعض ، ثم تتراجع حاملة ما حصلت عليه من غنائم وأسلاب ، وقد ترجع ، وهي مسلوبة مهزومة ، في حالـة تمكن من أريد إيقاع الغارة به من الدفاع عن نفسه ، ومن تغلبه على المغير ورده خائبـاً على الأعقاب .

وتكون الغارات في وجه الصبح في الغالب ، حتى يؤخذ من يراد الإغارة عليه بغرة ويفاجأ بالغارة مفاجأة . وقد يقصد في الليل من غير أن يعلم ، فيؤخذ بغتة، والاسم (البَيات) . و (بيت القومَ والعدوَّ : أوقع بهم ليلاً)[3] . وقد أشير إلى (البيات) في الحديث . فقد كان المسلمون يصيبون في البيـات من ذراري المشركين ، فسألوا الرسول حكمه فيهم . فكان حكمه : (هم منهم) و (هم من آبائهم)[4] .

والغارة دفع الخيل على من يراد الإغارة عليهم . يقـال أغار على القوم غارة واغارة ، دفع عليهم الخيل . فتكون الغارة بالخيل في الأخص . ويقال أغار إغارة الثعلب ، إذا أسرع ودفع في عدوّه[5] . فالغارة غير الغزو والحرب، تكون سريعة في الغالب ، يعقبها رجوع سريع .

---

١ المصدر نفسه (١/١٢١) .
٢ كتاب الفاخر (ص ٤٩) ، (ليدن ١٩١٥ م) .
٣ اللسان (٢/١٦) ، (بيت) ، تاج العروس (١/٥٣١) ، (بيت) .
٤ صحيح مسلم (٥/١٤٤ وما بعدها) ، (باب جواز قتل النساء والصبيان في البيات من غير تعمد) .
٥ تاج العروس (٣/٤٥٨) ، (غور) .

ويعبر عن الغارة بلفظة (تادم) في العربيات الجنوبية . وتطلق على كل حملة عسكرية أيضاً [1] .

ولا تقتصر الغارات على غارات قطعات الجيش على العصاة والثوار ، بل قد تقوم بها قبيلة على قبيلة ، وقد يقوم بها أفراد ، لأسباب مختلفة . وقد يقوم بها اللصوص والصعاليك ، يغيرون على أحياء العرب وعلى السابلة للحصول على مغنم . وكان بعض أصحاب الغارات يمعنون في الغارة فيبتعدون عن منازلهم . ويعدّون (بُعد الغارة) نوعاً من أنواع الشجاعة والفروسية ، لما تكتنف المغير من أخطار ومهالك . وكان (مروان بن زنباع) ، ويقال له : (مروان القرظ) من (مشهوري أهل الجاهلية في بُعد الغارة) [2] .

وكانت الغارات والغزوات من أهم وسائل الإعاشة والحصول على مغانم بالنسبة للقبائل النازلة على حدود الحضارة أو على مقربة منها . مثل حدود العراق أو حدود بلاد الشأم . وتكثر الغارات في سني الجدب والقحط وانحباس المطر . فلا يبق أمام تلك القبائل للبقاء على حياتها سوى النزوح الى أماكن أخرى مخصبة معشبة ، ويؤدي ذلك إلى التقاتل مع القبائل الأخرى النازلة في تلك الأرضين ، أو مع قوات الحدود التي تحاول رد تلك القبائل خشية غزوها للحضر أو لمن يقيم وراء الحدود من أعراب . لذلك استعملت حكومات العراق وبلاد الشأم جملة وسائل لكبح جماح الأعراب الغزاة في جملتها حماية الحدود بـ (مسالح) بنيت في أطراف البوادي وفي نهايات الطرق التي توصل إلى الحضر ، تضع بها قوات مقاتلة نظامية وغير نظامية من الأعراب أصحاب الإبل لمقاتلة الأعراب ، وتقديم الأطعمة والميرة من المستودعات المقامة في (المسالح) و (القصور) إلى سادات القبائل لسد ما عندها من نقص في الطعام ، وبإقامة إمارات عربية ، تودع اليها أمور تأمين الأمن في البادية وحماية الحدود من غارات الأعراب .

المحاربون :

والمحاربون على نوعين : أحرار وعبيد . ولذلك نجد بعض الكتابات العربية

---

١ South Arabian Inscriptions, p. 449.

٢ الاشتقاق (١٦٩/٢) .

الجنوبية تشير إلى هذين النوعين من المقاتلين ، مما يدل على كثرة عدد العبيد الذين يؤمرون بالقتال في ذلك الزمن . جاء في نص (كرب ايل وتر) الموسوم بـ Glaser IOOOA (وجيش عبدان من أحرار ورقيق) . وورد هذا التعبير في نصوص أخرى تعبيراً عن وجود عدد كبير وربما أفواج من المقاتلين العبيد في جيوش ذلك الزمن .

والسخرة هي الطريقة الغالبة في التجنيد ، فإذا وقع خطر ، طلب الملك من الأقيال والرؤساء تسخير من يتمكنون تسخيره للقتال . ويبقى المسخر في الخدمة حتى تنتهي الحرب . ولما كان المسخرون قد أجبروا على القتال إجباراً، وهم من الطبقات الدنيا في الغالب ، وليس لهم ما يقتاتون به ، لذلك ، كثرت حوادث التهرب من الجيش،والفرار منه في أثناء القتال . ووضع مثل هذا يؤثر على مصير الحرب بالطبع .

ويتولى الحرب والجيش أناس مدربون على أسلوب القتال لهم خبرة بالحروب ، أو سادات قوم عليهم واجب قيادة قومهم عند ظهور غزو أو خطر أو حرب ، ويعرف مثل هؤلاء بقادة ، والواحد (قائد)[1] .

وكان بعض قادة الجيش عند العرب الجنوبيين يحملون درجة (مقتوي) ، وهي منزلة خاصة في درجات القيادة العسكرية وورد (مقتوي ملكن) ، أي (مقتوى الملك) ، بمعنى (قائد الملك)[2] . والظاهر أن هذه الدرجة كانت خاصة بمن يختارهم الملوك لقيادة الجيوش . فإذا اختار الملك شخصاً من الجيش أو من سادات القبائل أو من أصحاب الأرض لأمر يراه فيه ، وعينه لقيادة الجيش ، عبر عن مكانته هذه بـ (مقتوي) وبـ (مقتوى الملك) . وقد عرف علماء اللغة هذه اللفظة ، غير أنهم عبروا عنها بلفظة (مغالب) . ولم يبينوا ما المراد من (مغالب)[3] .

ويقال للضابط الذي يقود الجيش ، أو قطعة منه (اسود) ، وذلك في اللغة السبئية[4] .

وقد كان لطبقة قواد الجيش شأن كبير ، وسلطان واسع ، ويعرف القائد

---

١ اللسان (٣/ ٣٧٠) ، تاج العروس (٢/٤٧٧) .
٢ REP. EPIGR. 4861, 4876, 4892, CIH 405, Grohmann, 131.
٣ اللسان (مادة قوي) تاج العروس (١٠/٣٠٧) .
٤ Jamme 665.

بـ (ق س د ن) (قسدن) ، أي (القاسد) أيضاً[1] . وقد ظل هذا الاستعمال معروفاً في العهد الحبشي كذلك ، لوروده في نصّ (أبرهة) . ولكن هذا لا يعني أن (القاسد) كان عسكرياً محترفاً ، مختصاً بقيادة الجيش ، فقد كان القواد من رؤساء العشائر ومن الوجهاء والكبراء يقودون أتباعهم في أثناء الحروب . أما في أثناء السلم ، فيعودون الى أعمالهم الاعتيادية ، كإدارة الأرض أو القبيلة. ولهذا ففي استطاعتنا أن نقول إن من بين قواد الجيش أناساً لم يكونوا من المتخصصين بالقيادة وبشؤون الحرب ، وإنما هم قواد متطوعون وسادات قبائل تضطرهم مراكزهم الى قيادة أتباعهم في أمثال هذه المناسبات .

وقد فهم بعض الباحثين أنها تعني المحاربين من النوعين : الأشراف والقادة من أصحاب الدرجات الرفيعة العالية ، والمحاربين المحترفين للحرب ، حتى صارت الجندية حرفة لهم ، يعيشون منها . فهم طبقة عسكرية خاصة محترفة على نحو ما كان عند (البطالمة) بمصر وعند غير البطالمة من جيوش ودول[2] . ولكن أكثر الباحثين يرون أن الـ (قسد) هم الطبقة الرفيعة من الأشراف وقادة الجيوش .

وعرف المكلف بإدارة موقع من المواقع العسكرية ، والذي يتولى أمر ادارة حاميته بـ (امر)[3] . أي (آمر) (الآمر) ، وربما الأمير . وعرف الضابط الذي يتولى قيادة جماعة من الجيش بـ (اسود)[4] . وأما (قدم) ، فإنه المقدم، الذي يقود قطعة من الجيش[5] . وربما قصد به من يتولى أمر قيادة مقدمة الجيش . ويعبر بلفظة (قتدم) عن تأمير الـ (قدم) وتنصيبه في وظيفته[6] . أي آمراً على قطعة الجيش . ويعبر عن التقدم للهجوم على العدو ، أي على الهدف المقصود من الحملة ، بلفظة (تقدم)[7] .

---

١ (القسود : كقتول : الغليظ الرقبة القوي) اللسان (٤/٣٥٢) ، القاموس (١/٣٢٧) .

٢ Grohmann, S. 122.

٣ South Arabian Inscriptions, p. 427. النص ٥٧٦ .

٤ South Arabian Inscriptions, p. 427.

٥ South Arabian Inscriptions, p. 446.

٦ المصدر نفسه (ص ٤٤٧) .

٧ المصدر نفسه (ص ٤٥٠) .

وقد عرف القادة الذين قادوا ألف رجل فما فوق بـ (الجرّارين) . ذكر (محمد بن حبيب السكري) ، ان العرب لم تكن تسمي الرجل جراراً ، حتى يرأس ألفاً . ومن هؤلاء (المطلب بن عبد مناف بن قصي) قاد (بني عبد مناف) وأحلافها من الأحابيش يوم (ذات نكيف) . و (بلعاء بن قيس الكناني) قاد (بني عبد مناة) يوم (ذات نكيف) ويوم المشلل ويوم الفجار. و (أبو سفيان : صخر بن حرب) قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق. و (عامر بن الظرب العدواني) قاد ربيعة ومضر وقضاعة كلها يوم البيداء . و (مالك بن عوف النصري) ، و (عوف بن عبدالله بن عامر بن جذيمة) و (ربيعة بن حذار الأسدي) و (زرارة بن عدس) التميمي ، و (لقيط ابن زرارة) و (الأقرع بن حابس) ، و (النعمان بن مجاشع) الدارمي ، و (النمر بن حمّان) السعدي ، و (الأضبط بن قريع بن عوف) السعدي ، و (محلم بن سويط الضبي) ، وذكر انه الرئيس الأول : أول من سار في أرض مضر برئاسته ، وغزا العراق وبه كسرى ، حتى بلغ العذيب[1] .

ومن بقية الجرارين في مضر : (قيس بن عاصم السعدي) و (وزهير بن جذيمة العبسي) و (عمرو بن جؤية بن لوذان الفزاري) و (بدر بن عمرو) و (حذيفة بن بدر) و (عيينة بن حصن) و (خالد بن جعفر بن كلاب) و (الأحوص بن جعفر) العامري[2] .

والجرارون من ربيعة : (ربيعة بن مرة بن الحارث بن زهير التغلبي) ، وابنه (كليب وائل) و (الهذيل بن هبيرة) و (الحوفزان) وهو (الحارث ابن شريك) و (بسطام بن قيس) و (الحارث بن وعلة الذهلي) و (أبجر ابن جابر العجلي) و (قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد) و (قتادة بن مسلمة الحنفي) و (أثال بن حجر بن النعمان بن مسلمة الحنفي) و (الهذيل ابن عمران التغلبي)[3] .

والجرّارون من قضاعة : (ذياد بن هبولة) ، (زياد بن هبولة) ، و (داوود اللثق بن هبالة) ، و (زهير بن جناب) ، و (رزاح بن ربيعة

---

١ المحبر (٢٤٦ ـ ٢٤٨) .
٢ المحبر (٢٤٨ ـ ٢٤٩) .
٣ المحبر (٢٤٩ ـ ٢٥٠) .

ابن حرام) ، وهو أخو (قصيّ بن كلاب) لأمه ، و (عمـيرة بن أوس ابن ثعلبة بن عوف بن كعب بن ذهل) ، وكان يدعي الملك ، و (الأشل بن عمرو) ، و (الثعيل)[1] .

والجرّارون من اليمن : (كرز بن عبدالله بن عامر) من بجيلة ، و (عبد يغوث بن وقّاص بن صـلاءة الحارثي) من مذحج ، و (الأشعث بن قيس الكندي) ، و (شراحيل بن أصهب الجعفي) ، و (يزيد بن أنس بن الديان الحارثي) ، و (ذو الغصة الحارثي)، و (مخرم بن حزن بن يزيد الحارثي)، و (العباب الحـارثي) ، و (حجر بن يزيد بن سلمة الكندي) و (قيس ابن سلمة الكندي) و (الزوير : علقمة بن سلمة بن مالك الكندي)، و (حسان ابن عمرو بن الجون الكندي) ، و (معاوية بن شرحبيل بن أخضر الكندي)، و (حُديج بن جفنة بن قتيرة السكوني) ، و (هبيرة بن المكشوح بن عبد يغوث المرادي) و (فروة بن مسيك المرادي)[2] .

وسار قادة الجيوش ومتولو ادارة المعارك على قاعدة (الحرب خدعة)[3] . ومعناها خدع العدو وايهامه للتغلب عليـه ، كأن يشيع قائد الجيش أنه سيسلك الطريـق الفلاني ، فيرسل بالفعل قوة صغيرة ، وهو يضمر خطة أخرى ، بأن يأمر القوة الكبرى بسلوك طريق آخر ، فيفاجيء العدو وهو غير متأهب ، أو يؤخذ عـلى غرة وهو لا يدري باحتمال قدوم الجيش من هذا المكان .

ولما كانت (المباغتة) من أهم وسائل كسب الحرب والحصول على الربح ، كان من أهم أسباب نجاحها التكتم والتستر ومعرفة قوة العـدو ومواضع ضعفه ، عمد الجاهليون إلى استخدام العيون للتجسس على العدو، يرسلونهم في صور شتى ؛ في صورة تجار أو مسافرين أو على هيـأة سرايا صغيرة تقتص آثار العدو وتسأل من يرون من المسافرين عن علمهم بأحوال العدو ؛ أو تقبض ربايا العدو ليحققوا معهم وليحصلوا منهم عن معلومات تفيدهم في إعداد خطة الحرب أو الغـزو . وفي ضوء هذه المعلومات يرتب القادة طريقة مباغتة العدو ومحاربته لانزال الضربة القاصمة به .

---

١ المحبر (٢٥٠ ــ ٢٥١) .
٢ المحبر (٢٥١ ــ ٢٥٢) .
٣ الدينوري . عيون (١/١٩٤) ، (باب الحيل في الحروب وغيرها) .

وإذا أحس انسان بوجود غارة ، أو رأى قوماً يتقدمون لمفاجأة قومه بغارة ، فعليه الاسراع لابلاغ قومه بها قبل أن يفاجئهم العدو بغارته وهم على غير استعداد لها ، وكان من عادتهم أن الرجل إذا رأى الغارة قد فاجأتهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار بها ليعلم ان قد فاجأهم أمر . ويقال لذلك الرجل (النذير العريان) ، ثم صار مثلاً لكل أمر يخاف من مفاجأته[1] .

ويقال للشخص الذي ينذر قومه بدنو عدو منهم ، ويزحف مغير عليهم ، (الصريخ)[2] . يسرع (الصريخ) إلى قومه قدر إمكانه ليبلغهم بخبر ذلك العدو قبل مباغتته لهم . ونظراً إلى ما للصريخ من أهمية بالنسبة إلى نتائج الغزو ، يتخذ المغيرون كل وسائل الحذر والتكتم والبحث عن النذر والصريخين لكيلا يفلتوا منهم فيذهبوا إلى قومهم وهم هدف الغزو أو إلى غيرهم ممن قصدوا بالغزو فيحذرونهم منهم،ويكونوا عندئذ في حالة تأهب واستعداد لمقابلة المغيرين ، أو لمباغتتهم بهجوم معاكس عليهم ، أو بنصب كمائن لهم قد تلحق أذى بهم ، وقد تؤدي إلى عكس ما قصد من ذلك الغزو .

ويعبر عن المباغتة والمفاجأة وأخذ العدو على حين غرة بحيث لا يشعر إلا والعدو يهاجمه بلفظة (بحض) في السبئية[3] .

ويُقال لمن ينذر قومه بقرب وقوع غزو وبدنو عدوّ منهم : (القاصد) . و (القاصد) ، هو من يقصد أحداً طلباً لحاجة أو تسهيلاً لأمر ، أو لإجراء وساطة .

وكانوا إذا أرادوا حرباً ، وتوقعوا جيشاً عظيماً ، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبل أو أي مرتفع من الأرض ناراً ، ليبلغ الخبر أصحابهم . واذا جدوا في جمع عشائرهم اليهم أوقدوا نارين . وقد عرفت هذه النار بنار الحرب[4] .

وقد استعانت الحكومات بحماية حدودها بوضع قوات عسكرية في المواضع العسكرية الخطيرة التي تكون لها أهمية كبيرة من الوجهة (السوقية) في تعبئة الجيش للحرب. وعرفت مثل هذه المواضع بـ (المناظر) . وهي مواضع تقيم بها حاميات تراقب

---

١ الفاخر (ص ٧٠) ، تاج العروس (١٠/٣٤١) ، (عرى) .
٢ اللسان (٣/٣٣ وما بعدها) ، (صرخ) ، نهاية الارب (١٧/١٢٦) .
٣ Jamme 576, Mahram, p. 428.
٤ الحيوان (٤/٤٧٤) ، (هارون) .

منها حركات الأعداء وتحركات الأعراب . وتكون الحاجز الأول الذي يمنع العدو من التقدم .

ونحن لا نكاد نعلم شيئاً عن أسس تنظيم الجيش في الحكومات الجاهلية ، لعدم ورود نصوص واضحة في ذلك . ولصلة ملوك الحيرة بالفرس ولصلة ملوك الغساسنة بالروم ، لا استبعد تدريب الفرس لجيش الحيرة وتقسيمه واعداده وَفْقَ نظم الجيوش الفارسية وأساليبها على القتال ، وتدريب الروم لجيش الغساسنة وَفْق أنظمتهم وقوانينهم العسكرية . وقد ذكر أهل الأخبار أن النعمان بن المنذر ، ملك خمس كتائب ، يحارب بها ، هي : (الوضائع) وقوامها قوم من الفرس كان كسرى يضعهم عنده عُدة ومدداً ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك لخم . فإذا كان في رأس الحول ردهم الى أهلهم ، وبعث بمثلهم . وكتيبة يقال لها (الشهباء) وهي أهل بيت الملك ، وكانوا بيض الوجوه ، يسمون الأشاهب . وكتيبة ثالثة ، يقال لها (الصنائع) ، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل . وكتيبة رابعة ، يقال لها (الرهائن) ، وهم قوم كان يأخذها من كل قبيلة ، فيكونون رهناً عنده ، ثم يوضع مكانهم مثلهم . والخامسة (دوسر) ، وهي كتيبة ثقيلة تجمع فرساناً وشجعاناً من كل قبيلة[1] .

ويظهر من بعض تفاسير علماء اللغة للفظة (الوضائع) ، أن (الوضيعة) جماعة من الجند تجعل في كورة لا يغزون منها[2] ، أي حامية . وأما الصنائع ، فطوائف من الناس يصطنعهم الملك ، ويكونون عوناً له وجنداً يحارب بهم . فهم من المرتزقة . وقد تستعين القبائل بطوائف من قبائل أخرى للقتال معها[3] . وقد استعان (سلمة بن الحارث بن عمرو المقصور) بـ (بني تغلب) و (النمر بن قاسط) و (سعد بن زيد مناة) وبـ (الصنائع) على أخيه (شرحبيل) ، وذلك يوم (الكلاب) الأول[4] .

وقد أشار (الزبيدي) الى كتيبة دعاها (الملحاء) ، قال عنها : (والملحاء) : كتيبة كانت لآل المنذر من ملوك الشأم . وهما كتيبتان ، إحداهما هذه والثانية

---

١ الكامل ، للمبرد (١/٢٨٨) .
٢ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، (وضع) .
٣ العمدة (٢/٢٠٦) .
٤ العمدة (٢/٢٠٥) .

الشهباء . قال عمرو بن شأس الأسدي :

يفلقن رأس الكوكب الضخم بعدما تدور رحى الملحاء في الأمر ذي البزل[1]

وقد أخطأ (الزبيدي) في جعل (آل المنـذر) من ملوك الشأم . وقصد بـ (الملحاء) (الدوسر) . بدليل قوله في موضع آخر : (والدوسر : اسم كتيبة للنعمان بن المنذر ملك العرب)[2] . وقد تعرض في مكان آخر من كتابه الى كتيبة الشهباء فقال : (والأشاهب بنو المنذر لجمالهم . قال الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحيـ ـرة يمشون غدوة بالسيوف

قلت : وهم إحدى كتائب النعمان بن المنذر . وهم بنو عمه واخوانه واخواتهم . سمّوا بذلك لبياض وجوههم)[3] .

ويظهر من شعر للمثقب العبدي ، قاله يمدح عمر بن هند :

ضربت دوسر فيـه ضربة أثبتت أولاد ملك فاستقـر[4]

ان هذه الكتيبة كانت موجودة في أيام الملك (عمرو بن هند) . وذكر بعض علماء اللغة ان (دوسر : اسم كتيبة كانت للنعمان بن المنـذر ، وأنشد للمثقب العبدي يمدح عمرو بن هند . وكان نصرهم على كتيبة النعمان)[5] . ولا بد وأن يكون في هذه الكلمات خطأ أو نقص : إذ لا يعقل أن يكون (عمرو بن هند) قد حكم أيام (النعمان بن المنذر) . وقد يكون قصد أحد ملوك الغساسنة ، أو ان الأخباريين أقحموا اسم أحد الملكين خطأ في هذا الشرح .

والكتيبة عشر (اللجيون) عند الرومان . ولذلك كان عددها يختلف حسب اختلاف عدد اللجيون . وعلى الأغلب كانت مـا بين (٤٠٠) الى (٦٠٠)

---

١ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٢ المصدر نفسه (٣/٢٠٦) ، (دسر) .
٣ تاج العروس (١/٣٢٧) ، (شهب) .
٤ تاج العروس (٣/٢٠٦) ، (دسر) .
٥ اللسان (٤/٢٨٥) ، (دسر) .

جندي[1] . وقد كان عدد اللجيون (٦) آلاف جندي في أيام الانبراطورية ، من الفرسان وبقية الأصناف المسانـــدة . ويقسم (اللجيون) المكوّن من الفرسان الى عشر كتائب ، عدد كل كتيبة من (٦٠٠) فارس . تعرف بـ Coforts . وتقسم كل كتيبة Cohort الى عشرة أقسام[2] . ويسير النظام العسكري عند الرومان وفقاً للطريقة العشرية في تكون الجيش . وقد يتألف (اللجيون) من (٧٠٠٠) جندي ، (٦٢٠٠) منهم من المشاة و (٧٣٠) من الفرسان ومن بقية التبع[3] .

وحكومات اليمن والحيرة والغساسنة،تكاد تكون الحكومات الوحيدة التي ملكت جيوشاً مدربة نظامية ، أي جيوشاً مستعدة في كل وقت للدخـول في الحروب . فلكل حكومة من هذه الحكومات كتائب مدربة في استطاعتها القتال . وهي كتائب من الفرسان وكتائب من المشاة ، ولها رؤساء يشرفون على تدريبها وتسييرها وقت القتال . وهي بإشراف ضباط يتولون قيادتها بأمر من الملوك .

أما أهل القرى والمدن ، فكان لهم قوادهم وحملة رايتهم في الحرب ، غـير أننا لم نسمع بوجود جيش نظامي مدرب عندهم ، ولم نسمع بوجود كتائب مقاتلة مستعدة للقتال أو للدفاع حين صدور الأمر اليها . بل كلّ ما وجدناه في كتب أهل الأخبار أن أسراً معروفة عهد اليها بحماية الراية والمحافظة عليهـــا ، فإذا وقع خطر ، أخرج حفظتهـــا تلك الراية ليرفعوها في القتال فتكون عندئذ شعاراً لهم وروحاً معنوية ذات أهمية ، فإذا سقط حاملها أخذها غيره وهكذا كانوا يتناوبون في حملها . وسقوط الراية له أثر كبير في معنوية المحاربين .

ويظهر من دراسة ما أورده علماء اللغة والأخبار عن تشكيلات الجيش عند بقية الجاهليين ، أن الجاهليين لم يكونوا يسيرون على نظام معين في تكوين الجيش وفي عدد وحداته ، بل كانوا يتركون أمر ذلك الى الظروف والى رأي القـادة الذين توكل اليهم أمور ادارة المعارك . وذلك لأنهم لم يكونوا يملكون جيوشاً نظاميـــة ثابتة ، فقد كانت القبائل تقاتل حين تدعى الى القتال أو حين يقع غزو عليها ، فيهب كل فرد منهـــا للدفاع عن قبيلته ، أو في المساهمة في الغزو ، يشترك في ذلك النساء والصغار أيضاً ، ولا سيما في حالات الدفاع عن النفس . حتى المدن

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٥٣) .
٢ Hastings, p. 540.
٣ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٤٦) .

والقرى لم يكن لها جيش ثابت ، ولا قادة يدربون المقاتلين على أساليب القتال ، ولا وحدات ثابتة تقيم في ثكنات ومعسكرات . بل كان شأنها شأن القبائل ، إذا هوجمت ، هبّ أفرادها رجالاً ونساءً كهولاً وصغاراً في الدفاع عن مدينتهم ، يقوم كل واحد منهم بدوره حسب طاقته وقدرته . وكذلك كان الحال في حالات الهجوم ، أي حين تهاجم المدينة عدواً لها ، يشترك في هجومها كل متمكن من القتال ، قياماً بواجبه الأدبي المفروض عليه . وليس لهذا الجيش المحارب تدريب عسكري سابق ، ولا وحدات معينة ، إنما تكون امرة سوقه وتسييره ، بأيدي الشجعان الأذكياء : ومن سبق له أن برز في قتال سابق ، وأبرز مكانه فيه .

وحتى في أيام الرسول لم يكن للمسلمين جيش ثابت منظم ، له وحدات على شكل فرق وكتائب وأفواج وسرايا ، وثكنات ومعسكرات ، وضباط . يعرف كل ضابط منهم وحدته وعدد جنوده . إنما كان المسلمون كلهم جنوداً ، إذا دعاهم الرسول الى القتال لبّوا نداءه . وقد يكون فيهم الكهل والشاب والتاجر والمزارع ومن لا عمل له . الفارس بفرسه ، والراكب على جمله ، والراجل ماشياً ، كل يحارب في سبيل الله . والرسول هو القائد الأعلى ، وهو الذي يعين الأهداف والخطط ، وهو الذي يختار القادة ومسيري المعركة إذ لا قادة ثابتون . وكان يستشير ذوي الرأي والخبرة في المواضع التي يقصدها وفي إدارة الحرب مع العدو . وإذا كانت المعركة معركة مبارزة ، نظر الرسول الى من معه ، واختار منهم من يصلح للمبارزة . وكان إذا أراد ارسال سراياه ، اختار للسرية رجلاً من أصحابه فأمره عليها . وأرسل معه من يختارهم ليكونوا له جنوداً . ولم يكن عدد أفراد السرية ثابتاً ، بل كان مختلفاً . ويتوقف العدد على حسب تقدير الرسول للموقف .

ويظهر من الشعر الجاهلي ان الأعراب كانوا يهابون من الالتحام بالجيوش النظامية ، لعدم قدرتهم وكفاءتهم في مقابلتها ، لما لها من تنظيم وتدريب وسلاح. وقد تركت (الدوسر) و (الشهباء) أثراً في ذاكرتهم ، نجده في شعرهم ، مع ان الكتيبتين لم تكونا على مستوى عالٍ من التدريب والتسليح . وقد كانوا يخشون من الالتحام بالجيوش الآشورية والبابلية والرومية ، لتفوق تلك الجيوش عليهم ، فإذا تعقبتهم هربوا إلى البادية ، حيث يجدون لهم عندئذ المأوى الصالح الأمين المناسب لهم ، للوقوف أمام الجيش النظامي . ويكون وقوفهم أمامه على هيئة كرّ

وفرّ ، وهجوم من جوانب مختلفة . فإن وجـدوا جلداً من ذلك الجيش وقوة ضاربة ، هربوا إلى قلب البادية .

ويظهر مما ذكره (سترابو) عن الجيوش العربية الجنوبية ، انها لم تكن مدربة على القتال ، ولم تكن مجهزة بأسلحة حسنة حديثة بالنسبة الى أسلحة الرومان في ذلك الوقت . ولم تكن منظمة ومقسمة إلى وحدات محاربة يسيّر أمورها ويوجهها في القتال ضباط لهم خبرة وعلم بأساليب القتال . ولهذا تقدم الجيش الروماني بكُل سهولة نحو اليمن ، دون أن يجد أمامه مقاومة تذكر ، مع ان جيشهم لم يكن من الجيوش الحسنة التنظيم ، المدربة تدريباً حسناً ، لمقاومة الجيوش النظامية[1] . ونجد في تغلّب (الحبش) ودخولهم العربية الجنوبية وتحكّمهم بها مراراً ، ما يؤيد أن العربية الجنوبية لم تكن تملك جيشاً منظماً مدرباً على مقاتلة الجيوش النظامية ، وانما كانت تملك (عساكر) تعرف قتال الأعراب وأهل القوى ، بأسلحة لم تحاول الحكومات تحسينها وتجديدها وفقاً لتطور السلاح في العالم . مع العـلم ان الحبش أنفسهم لم يكونوا أصحاب جيوش منظمة ولا مدربة تدريباً حسناً ، ولا مـزودة بأسلحة جيدة حديثة على طراز أسلحة اليونان والرومان والفرس . وقد تحكموا مع ذلك في اليمن حتى جاءهم الفرس ، فأخرجوهم منها قبيل الاسلام، مع ان الذين أخرجوهم كانوا من قطّاع الطرق ومن المتصعلكة ، وقد جاؤوهم بسفن قديمة ، ولم يكونوا من المحاربين النظاميين المدربين على القتال .

ويظهر أن حكّام العربية الجنوبية، كانوا يعتنون بجمع العساكر وتكوين الجيوش للقضاء على خصومهم،ولكنهم لم يحفلوا بأمر تنظيم الجيش وتدريبه وتجديده وتحسين سلاحه . مع أن أمر التنظيم والتدريب والتسليح وكيفية استخدام الجندي لسلاحه ، من أهم أمور التغلب في الحروب والإنتصار على الأعداء . ولهـذا كانوا يتغلبون على خصومهم في العربية الجنوبية وعلى القبائل ، لأنهم دونهم بكثـير في المستوى وفي الإمكانيات . ولما كانت حروبهم حروباً داخلية ، لم تتجاوز حـدود جزيرة العرب ، وإذا تجاوزتها ، كان اتجاهها سواحل إفريقية ، وهي بـلاد غير متقدمة ولا تملك جيوشاً نظامية مدرّبة ، لذلك لم يحفل أولئك الحكام بأمر الانفـاق على الجيش لتنظيمه وتدريبه وتحسين سلاحه ومستواه ووضعه في ثكنات صحية وتجهيزه

---

١ راجع الصفحة (٤٢ وما بعدها) من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

بالعربات وبالخيل ، لتعطي السرعة للجيش في القتال والحماية اللازمة للمشاة . وبقوا يسيرون على الطريقة التقليدية التي أملتها طبيعة أرضهم عليهم من الاعتماد على عساكر (اسد) الملك وعلى عساكر الاقطاعيين وعلى المرتزقة وعلى الحشور الذين يجمعون جمعاً عند وقوع حرب .

ولم يعتنِ العرب الجنوبيون بتحسين السفن وتجديدها وتحصينها للمحافظة بها على سواحلهم الطويلة . فلما ظهر الرومان والبيزنطيون في البحر الأحمر ، لم يتمكنوا من الوقوف أمامهم . فانتزعوا منهم السيادة على هذا البحر بسهولة ، واتصلوا بالسواحل الإفريقية وبلغوا (سيلان) وسواحل الهند . وفقد العرب ما كان لهم من ممتلكات في السواحل الإفريقية المقابلة . بل صارت سواحلهم عرضة لهجمات سكان تلك السواحل ، ولتدخل الحبش مراراً في بلادهم . مع أن الحبش أنفسهم لم يكونوا أصحاب سفن جيدة كبيرة ، ولا اسطول قوي،حتى أن الروم ساعدوهم بأسطولهم في نقل قواتهم لاحتلال اليمن . ولم يرد في روايات أهل الأخبار ولا في أخبار الموارد اليونانية ما يفيد بتصدي السفن العربية الجنوبية للمغيرين الأحباش ، ولا بوقوع أية معركة بحرية بين العرب والحبش أو غيرهم في البحر . ويدل نزول الحبش على السواحل العربية بيسر وسهولة على عدم وجود تحصينات بحرية على السواحل ، وعلى ضعف الجيش في ذلك العهد .

ولطبيعة بلاد العرب أثر كبير بالطبع في ظهور هذا التخلف الملحوظ في بناء القوة العسكرية . فمعظم أرض جزيرة العرب أرضون سهلة منبسطة لا يجد فيها أصحابها مواضع طبيعية يتحصنون بها في حالتي الدفاع والهجوم . لذلك صار القتال فيها وجهاً لوجه ، والتغلب فيه للمحارب الذي يملك وسائل الحرب السريعة من إبل وخيل وعدة . ثم إن الفقر العام الذي ساد جزيرة العرب آنذاك وفقرها من ناحية الموارد الطبيعية وتغلّب الجفاف والحرارة عليها ، جعلت العرب كتلاً ، أي شعوباً وقبائل ، مشتتة مبعثرة ، تعيش حول ما تجده من ماء ومن مورد رزق ، وكأنها أمم متباينة ، لضيق أفق المعيشة فيها ، ولتقاتلها فيما بينها على الماء وموارد الرزق الشحيحة . وأوضاع مثل هذه لا تساعد على التجمع وعلى تكوين دولة قوية كبيرة ، تجمع جيشاً قوياً مدرباً ذا عدة وعدد ، يستطيع الصمود أمام الجيوش النظامية المدربة التي تملكها الحكومات الغنية مثل حكومات البيزنطيين والفرس،التي غذت جيوشها بالمال وبالجنود المحترفين المدربين على القتال وبالضبط

المتخصصين بشؤون الحرب وبالعدد والعدة المتطورة وبالمال . ولهذا لم تتمكن (عساكر) الجاهليين من الوقوف أمام الجيوش النظامية ، لتفوّق هذه الجيوش عليها في التنظيم وفي التدريب وفي السلاح وفي كيفية استعمال الأسلحة : واستغلال المواقف وتطبيق العلم على الأرض التي يقع فيها القتال ، وفي التغذية والعناية بأحوال الجنـــدي . ولهذا تحاشت الاشتباك مع الجيوش النظامية في خـارج حدود بلادها ، وجمّدت قتالها وحصرته في الغزو وفي القتال الداخلي ، أي في قتال العرب بعضهم بعضاً ، وهو قتال لم يستوجب تطوير الأسلحـــة وتحسينها ، كما يستوجبه قتـــال الجيوش النظامية الكبيرة ، وقد اعتمد على شجاعة الفرد ، وعلى الحماس وعلى ذكاء السادة في الاستفادة من المواقف ومن توجيه فرسان الحرب .

أما المقاتلون فهم متطوعون ، تطوّعوا للقتال للدفاع عن مواطنهم ، ومجبرون، عليهم الخروج للقتال لأنهم تبع ، وقد أمروا به أمراً ، ومن هؤلاء الرقيق . ولما كان القتال بسيطاً لذلك كان واجب المقاتل متوقفاً على قابليته العقليـة والجسمية . ولا نجد في كتب أهل الأخبار ما يفيد بوجود تدريب للفريقين أثناء السلم ولا في أثناء الحرب ، بـــل يدخل المحارب الحرب كما يدخل المتشاجرون أي شجار ، وهنـــاك يستعمل ذكاءه في اختيار الدور الذي يناسبه ، فقد يظهر مهارة وحنكة وشجاعة فيرتفع اسمه بين قومه ، وقد يقوم بدور المشجع بالكلام ، وقـــد يقوم بأدوار بسيطة ساذجة . فإذا انتهى القتال عاد الناس الى حياتهم الأولى ، عـــادوا الى بيوتهم وهي ثكناتهم الوحيدة التي جاؤوا منها .

وترد لفظة (كتيبة) والجمع (كتائب) في الشعر الجاهلي ، تعبيراً عن تنظيم وتكتل في صفوف الجيش . فقد ورد أن (حجر بن أم قطام) قاد كتيبة (فارسية) على رواية ، أو أنه كان نظم كتيبة مسلحة بأسلحة من دروع وبيض مـن صنع الفرس[1] . ووردت أخبار أخرى تتحدث عن وجود كتائب عند سادات قبائـــل قوية ، دلالة على أخـــذ القبائل القوية بنظام تكتيل الجيش وتصنيفه وتقسيمه الى كتائب في القتال لتلقي الرعب في نفوس الأعداء ، ولا سيا في نفـوس الأعراب الذين لم تساعدهم ظروفهم على انشاء مثل هذه التنظيمات العسكرية .

ويعبر عن (الكتائب) بلفظ (المقانب) أيضاً[2] . واذا كان الجيش ما بين

---

١ شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٥) .
٢ واحدها (مقنب) .

الثلاثين إلى الأربعين أو قدر أربعين رجلاً أو خمسين ، قيل له (المنسر)[1] .

ويذكر علماء اللغة ان الكتيبة انما سميت كتيبة ، لاجتماعها وانضمام بعضها الى بعض[2] ، فهي اذن كتلة كبيرة من الجيش . وعرفوها بأنها القطعة العظيمة من الجيش ، والجمع : كتائب . وعرف بعض علماء اللغة الكتيبة بأنها جماعة الخيل إذا أغارت مكونة من المئة الى الألف[3] .

وعرفت الكتيبة بـ (جأواء) كذلك . وقيل : الجأواء كتيبة كثيرة الدروع.

وذكر بعض علماء اللغة أن المنسر ما بين ثلاثين فارساً الى أربعين[4] . بينما جعله بعض آخر ، ما زاد على خمسمائة حتى يبلغ الثمانمائة ، فيكون حبشياً[5] .

ويظهر من تفاسير علماء اللغة للفظة (المقنب) ، أن المقنب تكون في الخيل خاصة . قالوا : « والمقنب من الخيل جماعة منه ومن الفرسان . وقيل ما بين الثلاثين الى الأربعين أو زهاء ثلثمائة ... وقيل دون المائة » . وورد : المقنب جماعة من الخيل تجتمع للغارة . قال لبيد :

وإذا تواكلت المقانب لم يزل بالثغر منا منسر معلوم[6]

والسرية في تعريف علماء اللغة قطعة من الجيش ، تسري في خفية ليلاً ، لئلا ينذر بهم العدو فيحذروا . وهي من خمس أنفس إلى ثلثمائة ، أو يبلغ أقصاها أربعمائة . وقيل هي من مائة الى خمسمائة ، فما زاد فمنسر ، فإن زاد على ثمانمائة فجيش ، فإن زاد على أربعة آلاف فجيش جرّار ، وإن كانت من الخيل ، فتكون نحواً من أربعمائة . وقيل سمّوا سرّية لأنهم يكوّنون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السري ، وهو النفيس[7] .

وقد اختلف في عدد رجال (الحضيرة) . فقيل : الحضيرة الأربعة والخمسة

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ١٣٧) ، تاج العروس (٣/٥٦٤) ، (نسر) .
٢ الكامل (١/٥٧) ، شرح ديوان لبيد (ص ١٣٤) .
٣ اللسان (١/٧١٠) ، تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .
٤ تاج العروس (١/٤٤٠) ، (قنب) .
٥ تاج العروس (١٠/١٧٤) ، (سرى) .
٦ تاج العروس (١/٤٤٠) ، (قنب) .
٧ تاج العروس (١٠/١٧٤) ، (سرى) .

يغزون . وقيل : السبعة والثمانية . وقيل : العشرة فمن دونهم[1] . وذكر ان (الحضيرة) مقدمة الجيش[2] .

وأما (النفيضة) ، فالجماعة يبعثون ليكشفوا هل ثمّ عدو أو خوف . وذكر ان (النفيضة) الذين يتقدمون الخيل ، وهم الطلائع[3] .

وتؤدى لفظة (مصر) معنى القطعة من الجيش ، والحملة وذلك في السبئية[4] .

ويقال لقائد الكتيبة (كبش الكتيبة) . وكبش القوم رئيسهم وسيدهم . فهو سيد الكتيبة وقائدها[5] .

ويعبر عن المحارب والمقاتل بلفظة (جندي) وبـ (اسد) (أسد) في العربيات الجنوبية والجمع (اسدم) أي جنود[6] . وقد يكون الجندي حراً وقد يكون عبداً أي رقيقاً ومولى ، وقد وردت جملة (اسد املكن) أي (أسود الملوك) بمعنى (جنود الملك) و (عسكر الملوك)[7] ، وذلك تمييزاً لهم عن الجنود الآخرين الذين كان يجندهم الأقيال والأذواء وسادات القبائل .

ويقصد بـ (اسد) أي جندي ، الجندي النظامي أي المحارب الذي اتخذ الجندية عملاً له . ولهذا نجد النصوص لا تستعملها إلا في هذا المعنى ،وذلك للتمييز بينه وبين المحاربين الآخرين المتطوعين أو المكرهين على الدخول في القتال أو المؤجرين أو المحاربين من أهل القبائل أو من أهل المدن الذين يهبّون للقتال عند دنو خطر على أهلهم أو قراهم . وتكون اعاشة هؤلاء الجنود على من يأمرهم بالخدمة في جيشه بالطبع ، من ملك أو مكرب أو مدينة أو قرية أو سيد أرض.

وأما إذا كان المحارب رقيقاً كائناً ما كان جنسه أو لونه ، وأشرك في القتال ، فيعبر عنه بـ (ادومت) (ادمت) ، أي (ادم) و (أوادم) ، بمعنى الخدم

---

١ اللسان (٤/١٩٩) ، (حضر) .
٢ تاج العروس (٣/١٤٧) ، (حضر) .
٣ اللسان (٤/١٩٩) ، (حضر) ، تاج العروس (٣/١٤٧) ، (حضر) ، (٥/٩٢ وما بعدها) ، (نفض) .
٤ Mahram, p. 440.
٥ اللسان (٦/٣٣٨) .
٦ راجع النص المرسوم بـ : Glaser 1571
٧ Kat. Texte, I, 73, anm. 3, REP. EPIGR. 4624, J. Ryckmans, L'Institution Monarchique, 147, Grohmann, S. 123.

المملوكين . فلسيد القبيلة ولكبار أصحاب الأرض والملاكين والأغنياء (أدم) أي خدم ، يخدمونهم ويقاتلون عنهم في الغزو وفي الحرب وفي الدفاع عن النفس[1] . ولم يكن هؤلاء (الأدم) من العسكريين المحترفين[2] .

وأما إذا كان المحارب أجيراً يؤجر نفسه لمن هو فوقه لخدمته أو للقتال عنه، فإذا وقع قتال طلب منه الدخول فيه ، للقتال في سبيل صاحبه قيل له : (اجر) أي (أجير) والجمع (اجر) و (اجرم) ، أي أجراء[3] .

وليس لدينا أخبار عن معامل تعمل فيها (الشكة) ، أي السلاح كله للحكومات أو للقبائل في الجاهليـــة[4] . غير أني لا استبعد وجودها في اليمن . فقد كانت حكومات اليمن ، حكومات منظمة تُعْنَى بمثل هذه الأمور التي هي من ضرورات الدولة . أما القبائل ، فقد كان المحاربون فيها هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح: وقد يكون ذلك السلاح عصياً يقاتلون بها،وقد لا يكون لدى المحارب أي شيء منه سوى الحجارة التي يجدها أمامه ، فيتراشق بها مع الأعداء . أما سادات القبائل والأغنياء ، فقد كانوا يشترون أسلحتهم ويخزنونها الى وقت الحاجة . فإذا ظهرت وزعوها في أولادهم وخدامهم ومواليهم للقتال .

وإذا عزمت قبيلة على غزو قبيلة أخرى وجب على كل بالغ سليم الغزو معها، كما أن على كل فرد من القبيلة المهاجمة أن يقوم بواجبه في الدفاع عنها ، وهذا واجب كل رجل في القرى والمدن أيضاً . فقد كان على رجال كل قرية أو مدينة الدفـــاع عن أنفسهم ، ورد غزوات الغازين . لاستقلال كل قرية أو مدينة في أمورها وشؤونها ، ووقوع كاهل الدفاع عن نفسها على عاتقها . وعلى كل مواطن لذلك ، بدوي أو حضري أن يهيء نفسه في أيام الحروب والغزوات للدفاع عن نفسه وعن مواطنيه ، وأن يقوم بعمل الجندي في هذه الأيام .

وقد يقعد بعض الرجال من الأغنياء ، أو من المسنين عن المساهمة في الحرب أو الغزو ، فيدفعون جعلاً في مقابل ذلك لرجال يحاربون عنهم ، فيكون الجعل لهم ، ويكون ما قـــد يقع في أيديهم من غنائم لهم أيضاً . وقد يتفق على ذلك

---

١ Grohmann, S. 122, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S. 183.

٢ Grohmann, S. 124.

٣ Jamme 577.

٤ الاغاني (٢٠/١٣٢) ، (الشكة : السلام) ، كتاب المعاني (١/١٠٧) .

بأن يجعل المقيم للغازي شيئاً . وقـد كرهت الجعائل في الإسلام[1] . وفي الحديث أنها سحت . وهي ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعائل . قال سليك بن شقيق الأسدي :

فأعطيتُ الجِعـالة مستميتاً خفيفَ الحاذِ من فِتيانِ جَرْمِ[2]

واذا قامت قبيلة بغزو قبيلة ما ، قام رجالها من ذوي الرأي والمعرفة بالمعارك بإعداد خطط غزو العدو ومهاجمته ومباغتته وترؤسه وعلى شجعانها قيـادة الغازين المحاربين . أما القبيلة التي تتعرض للغزو ، فيقوم ذوو الرأي والخبرة العسكرية فيها بإعداد الخطط للدفاع عن نفسها ، وردّ الاعتداء عنها . وفي حالة الأحلاف يعد ذوو الرأي والخبرة العسكريـة في الحلف خطط الهجوم أو الدفاع ، ويشترك الحلف في إعداد المحاربين وقيادتهم .

والغالب ان الذي يقوم بقيادة المحاربين وتوجيههم في المعـارك هم من أسر توارثت ذلك ، وصارت القيادة وكأنها حق لها . فإذا وقـع غزو ، أو أرادت قبيلة ما غزو قبيلة أخرى ، نهض رجال الرأي في الحرب بإعداد الخطة والتشاور في الرأي لكسب المعركة . وقد كانت قريش قد وكلت أمر حربها وقيادة محاربيها الى (آل حرب) . ولكن ذلك لا يعني عدم تغيير القادة وإبدالهم ، وتعيين قادة جدد من أسر أخرى ، فقد كانوا يفعلون ذلك أيضاً عند الضرورات .

ولم تكن قوات القبائل في مستوى القوات النظامية من حيث التسليح والقابلية في القتال . فأسلحة رجال القبائل بسيطة وبدائيـة في الغالب لفقرها وعوزها وهي غير منتظمة ولا مدربة على القتـال تدريباً فنياً ، وانما يقوم فنها عـلى الإغارة والمباغتة ، فإذا وجدت مقاومة ما فرّت وولت،لأنها لا تتحمل المقاومة والوقوف في وجه العدو مدة طويلة ، ولا تستطيع الصبر على ذلك . وهي من هذه الناحية قادرة على إلحاق الأذى بالقوات النظامية في حروب الصحارى،فتقوم بمباغتة العدو وأخذه بالمفاجأة ، فإذا وجدت مقاومة منـه أو أخذت ما كانت تصبو اليه من غنيمة ، عادت مسرعة إلى معقلها ، لتحتمي به ، ولتوزع ما غنمته وفق العادة والعرف .

---

١ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٣٨) .
٢ اللسان (١١/١١١) ، (جعل) ، تاج العروس (٧/٢٥٧) ، (جعل) .

والغزو مصدر مهم من مصادر الإعاشة بالنسبة إلى الأعراب ، يلجأون اليه في أيام الشدة والمحنة لغناء أهل القرى والمدن بالنسبة إلى أهل البادية ، صارت هذه المواضع هدفاً مقصوداً للأعراب ، ومصدراً من مصادر الرزق عندهم ، ولا سيما المواضع الواقعة على حدود الأرضين الغنية الخصبة ، كالعراق وبلاد الشأم . وقد أدركت الدول الحاكمة في العراق وفي بلاد الشأم هذه الحاجة ، فاستغلتها ، فأخذ الروم يشترون رؤساء القبائل ، يدفعون لهم رشاوى وهدايا ومنحاً ومرتبات لحماية حدودهم من تحرش رجالهم بها ، ولمهاجمة حدود أعدائهم الفرس ، ولمقاومة القبائل التي يرسلها الساسانيون لمهاجمة بلاد الشأم . وفعل الفرس مثل ذلك ، فدفعوا المنح والمرتبات والهدايا لرؤساء قبائلهم،ودفعوهم على مهاجمة حدود بلاد الشأم . وقد اضطرت القرى والمدن في جزيرة العرب الى مهادنة القبائل القوية النازلة بقربها ، والى محالفتها بدفع إتاوات لها في مقابل عدم التحرش بها وحمايتها من تحرش القبائل الأخرى الطامعة بها ، وفي مقابل مرور قوافلها في أرضها . وبذلك أمنت على سلامتها وعلى أموالها بعقد هذه العهود والمواثيق .

ولضرورة الدفاع عن النفس ، وللوقوف أمام طمع القبائل القوية في القبائل الضعيفة ، اضطرت أكثر القبائل الى التحالف والتكتل لمنع الغزو فيما بينها ، والى مقاومة أي غزو يقع عليها . وقد أطلق العرب على كل قبيلة تحارب وحدها دون محالفة قبيلة أخرى (الجمرة) . وذكر أن (الجمرة) ، هي القبيلة التي لا يقل عدد فرسانها عن ثلاثمئة فارس ، وهو عدد يدل على قوة القبيلة وشدة البأس . وذكر الأخباريون أن (جمرات العرب) ثلاث : بنو ضبة بن أد ، وبنو نمير ابن عامر ، وبنو الحارث بن كعب . فطفئت جمرتان ، وبقيت جمرة واحدة : طفئت بنو ضبة لأنها حالفت الرباب ، وطفئت بنو الحارث لأنها حالفت مذحج، وبقيت نمر لأنها لم تحالف[1] .

والغالب على أسلوب القتال عند الجاهليين : الكرّ والفرّ ، وذلك بأن يهاجم المحاربون عدوّهم ثم يتراجعون بسرعة وكأنهم قد فروا خوفاً منه ، ثم يعودون

---

١ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٥٣) ، الحصري ، زهر الاداب ، (١/٢٠) .

فيكرون عليه . يضعون مكاناً يكون مركز ثقلهم والملجأ لهم ، يلتجئون اليه ، ثم ينطلقون منه للكر على العدو . وقد اتبعوا أيضاً أسلوب القتال صفوفاً ، بأن يقف المحاربون صفوفاً ، يحاربون دون كر ولا فر[1] .

ولا بد للمحارب من أسلحة يحارب بها ويدافع بها عن نفسه . ويستعمل العرب لفظة سلاح وعدة المحارب في مقابل Arms = Armour في الانكليزية و(ملديم) Malddim و (كليم) Kelim و (حليضه) Hallizah في العبرانية[2] . ويراد بها كل ما يستعمله ويحمله الجندي من وسائل الحرب من هجوم ودفاع .

والسيف هو السلاح الرئيسي في القتال . استعمل في الهجوم وفي الدفاع عن النفس . ويطلق العبرانيون عليه وعلى الخنجر لفظة (خ ر ب) (خريب)[3] . وقد يكون السيف قصيراً أيضاً . وهو ذو حد واحد وذو حدين . وقد يكون رأسه مدبباً حاداً يستعمل للطعن . أما الضرب فيكون بحد السيف. والسيوف الجيدة هي السيوف المصنوعة من الفولاذ ومن الحديد النقي الجيد . وقد اشتهرت سيوف اليمن ، وبعض السيوف المستوردة من الخارج . ويقال لحديدة السيف (النصل) ، وتقابل هذه اللفظة لفظة (لهب) (لهيب) في العبرانية ، من أصل (لهب) ، وذلك للمعان السيف الذي يشبه اللهب عند عرضه في الشمس[4] .

وللسيف أسماء كثيرة ترد في كتب اللغة ، بعضها أسماء وبعضها نعوت وصفات صارت في منزلة الأسماء للسيف . ومن أسماء السيف : (الجنّى) والجمع : (الجنية) ، يقال انها انما سميت جنية نسبة إلى الجنّي ، وهو الحدّاد[5] . ويعرف الحدّاد بالقين عند الجاهليين . أما الذي يقوم بصقل السيف ، فهو (الصيقل)[6] .

وقد اشتهرت أنواع من السيوف عند العرب ، تفاخروا بها ، لجودتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٥٦ وما بعدها) ، اللسان (٥/١٣٥) ، تاج العروس (٣/٤٦٧ ، ٥١٩) .

٢ Hastings, Dictionary, I, p. 154.

٣ لسان العرب (٩/١٦٦) ، تاج العروس (٦/١٤٩) ، المفضليات (ص ٩٨) (أحمد محمد شاكر ،وعبدالسلام محمد هارون) ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (٧٠ وما بعدها) (الطبعة الثالثة) .

٤ Smith, Dictionary. Vol. I. p. 110, The Bible Dictionary Vol. I. p. III.

٥ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٣٦٢) ، المعاني (٢/١٠٣٠) .

٦ شمس العلوم ، الجزءالاول، القسم الثاني (ص ٣٦٢) .

وشدة وقعها في العدو . ومن هذه السيوف المشهورة : (السيوف المشرفية) . قيل : انها سميت بذلك نسبة إلى (المشارف) جمع مشرف ، ويراد بها قرى للعرب تدنو من الريف . وقيل : لأنها من مشارف الشأم . وقيل : نسبة الى موضع من اليمن . وقيل بل نسبة إلى (مشرف) رجل من ثقيف[1] .

وردّ (ابن رشيق القيرواني) قول من نسب السيوف المشرفية إلى مشارف الشأم أو مشارف الريف ، وذهب إلى انها نسبة إلى (مشرف) ، من قرى اليمن[2] .

وعرفت سيوف (بصرى) بالجودة كذلك ، ويقال للسيف المنسوب اليها (بُصري)[3] . وقد مدحها (الحصين بن الحُمام المُرّي) ، وأثنى على القيون الذين أخرجوا (صفائح بُصرى) ، أي السيوف[4] .

واشتهرت السيوف السماة بـ (السريجية) بجودتها كذلك ، ويقال : إنها نسبة الى (سُرَيج) رجل من بني أسد . وهو أحد بني معرّض بن عمرو بن أسد ابن خزيمة وكانوا قيوناً[5] .

واشتهرت سيوف اليمن كذلك ، فقيل للسيف (يمان) و (يماني) ، إذا صنع باليمن . والظاهر أنها لمّاعة بيض ، ولذلك قيل (بيض يمانية) يمدحون تلك السيوف .

واشتهرت بعض السيوف في الجاهلية ، بقيت شهرتها خالدة في الإسلام . ومن هذه السيوف : سيف عرف بـ (الصمصامة) ، وهو سيف عمرو بن معديكرب[6]. وسيف عرف بـ (ذي الفقار) ارتبط اسمه باسم علي بن أبي طالب ، وكان قد استولى عليه في معركة (بدر) ، أخذه من العاصي بن منبه[7] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٦٢ وما بعدها) ، ديوان ابن مقبل (ص ٧) ، اللسان (٩/١٧٤) .
٢ العمدة (٢/٢٣٢) .
٣ المعاني الكبير (٢/٩٩٣) .
٤ المفضليات (ص ١٩ وما بعدها) ، (السندوبي) .
٥ بلوغ الارب (٢/٦٣ وما بعدها) ، العمدة (٢/٢٣٢) .
٦ العقد الفريد (١/٢٠٩) ، (٣/٣٧٠) ، تاج العروس (٨/٣٧٠) ، (صمم) .
٧ العقد الفريد (٣/٣١٨) ، (وذو الفقار بالفتح وبالكسر أيضا سيف سليمان) ، اهدته بلقيس مع ستة أسياف ، ثم وصل الى العاص بن منبه ، تاج العروس (٣/٤٧٤) ، (فقر) .

وكان في أصحاب رسول الله صحابيّ اشتغل بعمل السيوف في الجاهلية هو (خباب بن الأرت) . وكن من المسلمين الأولين الذين أعلنوا إسلامهم ، وعذبوا فيه[1] .

ويتبين من دراسة وتقصي مصادر السيوف عند العرب الجاهليين ، أن العرب كانوا آنذاك يستوردونها من أماكن مختلفة ، وأن استيرادها كان تجارة مربحة . وأن تجارها كانوا يفتشون في كل مكان من أسواق العالم المعروفة بصنع وبيع الأسلحة لشراء الأسلحة منها . فاستورد بعضهم أنواعاً من السيوف المصنوعة من الهند . وقد عرف السيف الجيد المصنوع بالهند بـ (المهند)[2] . واشتهر الروم بصنع السيوف الجيدة ، وكذلك الفرس .

وقد تفنن في تزويق السيوف وفي اكسائها بماء الذهب أو الفضة ، وقد اشتهرت الروم بإكساء السيوف ماء الذهب ، ويقال لذلك (الدجال)[3] .

والخنجر أقصر من السيف ، ويستعمل في المباغتة في الغالب وفي الهجوم وفي الدفاع عن النفس . وهو مثل السيف أيضاً ذو حد وذو حدين ، ويوضع في قراب يحمل في وسط الجسم . وهو لا يزال كثير الاستعمال لسهولة استعماله وإخفائه على حين قلّ استعمال السيوف ، أو مات ، لعدم ملاءمتها للقتال الحديث . ولرخص الخناجر ، بالنسبة الى السيوف ، كانت كثيرة الاستعمال حملها معظم الناس حتى الفقراء لحماية أنفسهم من أذى الانسان والحيوان . وقد استعملت في أثناء الالتحام بالحروب ، حيث يشتبك المحاربون بعضهم ببعض ، فيكون الخنجر من الأسلحة الملائمة للفتك بالعدو .

والرمح : سلاح يستعمل لطعن العدو ، يستعمله الفارس في الغالب . له رأس منبل حاد ، يطعن به . وقد يكون له رأس آخر : يثبت به في الأرض . وهو يختلف طولاً ووزناً . وهو من الأسلحة القديمة ، ولا يزال معروفاً ، تستعمله بعض القبائل والشعوب البدائية . يصنع من حديد أو من معدن آخر ، كما يكون من أعواد الأشجار القوية أو القصب القوي . وأجود الرماح عند العرب ، (الرماح الآزنية) ، أو (الرماح اليزنية) ، يقال انها نسبت إلى

---

١ الاصابة (١/٤١٦) .
٢ المعاني الكبير (٢/١١٠٣) .
٣ المعاني الكبير (٢/١٠٧١) .

(ذي يزن)[1] الملك . وهو على رأي بعض الأخباريين أول من اتخذ أسنة الحديد، فنسبت اليه وانما كانت أسنة العرب قرون البقر[2] .

وعرفت الرماح ذوات السنان بالأسنة . وهي ايضاً أنواع ، منها نوع يسمى (الأسنة القعضبية) نسبة إلى رجل اسمه (قعضب) من (قُشير) . ونوع يسمى (الأسنة الشرعبية) ، ينسب إلى (شرعب) . وإلى هذه الأسنة أشار (الأعشى) في هذا البيت :

ولدن من الخطّيّ فيهـا أسنةٌ ذخائر مما سَنّ أبزى وشرعب[3]

ويذكر أهل الأخبار ان الرماح الشرعبية ، منسوبـة إلى بطن من بطون حمير يقال لهم (شرعب بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد قيس)[4] .

والرماح (الخطية) ، من الرماح الجيدة المعروفة وتنسب الى (الخـط)[5] . والخط هو خط هجر ، تحمل اليه الرماح من بلاد الهند ، فتقوم به . فنسبت اليه[6]. و (الرماح الردينية) وهي من الرماح الجيدة المشهورة أيضاً ، يقال إنها نسبـة الى (ردينة) امرأة كانت تعمل الرماح[7] .

ويقال للرمح (المنجل) أيضاً[8]. واشتهر نوع آخر من الرماح عرف بـ (الرمح السمهري) والجمع : (الرماح السمهرية) . ذكروا أنها منسوبة الى (سمهر)، وكان صنعاً يصنع الرماح ، وكانت امرأته (ردينة) تبيعها[9] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٦٤) ، العقد الفريد (٣/٣٧٠) ، اللسان (٢/٤٥٢) ، تـاج العروس (٢/١٤٥) ، الروض الانف (١/٩) .

٢ قال الشاعر :
يهزهز صعدة جرداء فيها نقيع السم أو قرن محيق
الاشتقاق (٢/٣١٠) .

٣ بلوغ الارب (٢/٦٤) ، الاشتقاق (ص ٣٠٧) ، العمدة (٢/٢٣١) .

٤ العقد الفريد (٣/٣٦٩) .

٥ بلوغ الارب (٢/٦٤) .

٦ (الخط : جزيرة بالبحرين تنسب اليها الرماح . قال الاصمعي : ليست تنبـت الرماح لكن سفن الرماح ترفأ الى هذا الموضع ، فقيل للرماح : خطية) ، العمـدة (٢/٢٣٣) .

٧ بلوغ الارب (٢/٦٤) .

٨ الاشتقاق (٢/٣١٢) .

١ الروض الانف (٢/٢١٢) ، العمدة (٢/٢٣١) .

ويستعمل القنا في القتال أيضاً. ويظهر أنها نوع من أنواع القصب القوي الذي لا ينثني ولا ينكسر ، يكسى رأس القناة برأس من معدن مدبب حاد ليطعن به. ويستعمل القناة الفارس والراجل .

ويقال للقنا ، (قانه) Kanah في العبرانية و Kanna = Canna في اليونانية ويراد بها القصب ، وهو ينبت في مواضع كثيرة من مصر ، وفي الأرضين التي تكثر فيها الرطوبة والمياه[1] ، وقد اشتهرت بعض أنواع القصب بالمتانة والقوة . ولهذا استخدمت سلاحاً من أسلحة الطعان .

واستعملت الحراب في الطعن وفي زرق العدو بها . وقد ذكر أهل الأخبار أن الحبشة كانت تحسن الطعن بها ، وأن العبيد المجلوبين منها والذين كانوا بمكة ، كانوا قد اشتهروا بالطعن في الحراب ، ومنهم (وحشي) قاتل حمزة . وهو عبد حبشي زرق حربته ورمى بها حمزة فأصابه .

وكما تعتمد الجيوش الحديثة على اسلحة الرمي ، اعتمد الجاهليون على اسلحة هي بمنزلة البنادق والرشاشات في اسلحة هذه الأيام ، هي القسي والسهام. والقوس هي الآلة التي تمسك باليد ، ويشد وترها شداً قوياً ، ليرمي السهم الى العدو المراد رميه . وكلما كان الشدّ قوياً ، صارت الرمية بعيدة مؤثرة . وقد يكون السهم من غصن أو من خشب ، وقد يكون من معدن مثل حديد أو نحاس[2] . ويتخذ الوتر من مادة قابلة للتوتر وللشدّ ، حتى يكون في قدرته رمي السهم . الى مسافة بعيدة وبقوة . أما السهم ، فقد يكون من شجر ، وقد يكون من معدن . ويكون له رأس مدبب ليصيب به الهدف . وقد يسم رأس السهم ، فينفذ السم منه إلى الجرح ، فيصيب به الجريح إصابة قاتلة .

وقد عدّت الرماية من جملة الخصال العالية في الشخص المكملة للانسان . وقد اشتهر في الجاهلية قوم بدقة رمايتهم ، وبصحة اصابتهم الأهداف، إذا أرادوا رمي أحد اخرجو النبل ، فرموه بها ، وقلما يخطئون . واذا ارادوا وصف رجل بدقة الرمي . قالوا فيه : (كان من أرمى الناس)[3] . وكانت الرماية دراسة

---

1. The Bible Dictionary, II, p 355
2. Hastings, I. p 413
3. الاغاني ، (١٨/٢) .

يتعلمها الرامي من رماة ماهرين . فكان أهـل الحيرة والفرس يعلّمون أولادهم الرمي بالنشاب ، ليكونوا من الرماة المهرة . يستعملون فنهم هذا في قهر أعدائهم وفي الصيد وفي الحروب[1] . وقد كانت الجيوش تضم فرقاً من الرماة ، تكون لهم أهمية كبيرة جداً في تقرير نهاية الحرب ، لأنهم عنصر فعال قوي في التأثير في المحاربين .

وقد استعان الفرس والروم والرومان بالرماة الماهرين من العرب،فكوّنوا منهم فرقاً خاصة في جيوشهم ، وظيفتها الهجوم على العدو ورميه بالسهام للفتك به . فكانت السهام تقوم مقام نار البنادق والرشاشات في أسلحة هذا اليوم . وقد أشار الكتبة (الكلاسيكيون) إلى كتائب الرماة العرب التي كوّنها الروم والرومان .

وقد عرف بعض الرماة بدقة إصابتهم الهدف، فكانوا يصيبون بسهامهم ونبلهم أدق الأهداف . وقد اشتهر هؤلاء بـ (رماة الحدق) ، أي المهرة في الرمي ، فلا يخطئون الحدق . وفي كتب الأخبار قصص عن دقة إصابة هؤلاء الرماة[2] . ولخطورة الرمي في القتال ، ولأهمية هذا السلاح في مصير الحـروب ونتائجها ، أعطاه الاسلام أهمية كبيرة . وقد ورد في الحديث : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي »[3] . وورد أيضاً : أن الرسول كان يحث أصحابه على تعلم الرماية واتقانها[4] . وقد كان في صفوف قريش والوثنيين جماعة من الرماة المهرة الذين يصيبون الأهداف .

واشتهرت أنواع من القسي ، منها : (القسي الماسخية) ، نسبة الى رجل من بني نصر بن الأزد اسمه (ماسخة)[5] ، وقيل : (نبيشة بن الحـارث) . ذكر أنه أول من عملها . وتنسب القسي أيضاً الى (زارة) وهي امرأة (ماسخة)[6]. وفي هذه القسي قال الشاعر :

شرعت قسي الماسخي رجالنا بسهام يثرب أو سهام الوادي[7]

---

١ الاغاني (٢/١٩) .
٢ العقد الفريد (١/٢١٨ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (١/٢٢٢) .
٤ المصدر نفسه .
٥ بلوغ الارب (٢/٦٥) ، العمدة (٢/٢٣٣) .
٦ الروض الانف (٢/٢١٢) .
٧ الاشتقاق (ص ٢٨٨) .

وذكر أهل الأخبار نوعاً من الخشب سموه (الشِريانْ) ، ذكروا أنه خشب تتخذ منه القسي العربية [1] .

وأجود السهام التي وصفتهـا العرب ، (سهام بلاد) ، (سهام بلام) ، و (سهام يثرب)،وهما قريتان من حجر اليمامة . وقد ذكرها الأعشى في شعره[2].

ومن (النبل) الجيد نبل يقال له (رقميات) ، وقد نسبت الى (الرقم) ، وهو موضع دون المدينة ، ويقال سهام مرقومة [3] .

وتريش النبال بريش الطيور ، وتوضع عليها ريش نسر أحياناً [4] .

وتحفظ السهام والنبال في محفظة ، يقال لها : (الكنانة) . وأشهرهـا الكنائن المعروفة بـ (الكنائن الزغرية) ، وهي منسوبة الى (زغر) ، موضع بالشأم ، تعمل كنائن حمر مذهبة . وقد ذكرها أبو دؤاد الإيادي في شعره :

ككنانـة الزُغرى زينهـا من الـذهب الدلامص[5]

ومن مشاهير الرماة عمرو بن عبد المسيح الطائي ، وكان أرمى العرب . وفد إلى النبي ، وفيه يقول امرؤ القيس :

ربَّ رامٍ من بني ثعـل مخرج كفيه من سـتره[6]

واشتهر (القارة) بالرمي ، فقيل : إنهم أرمى حي في العرب ، ولهم يقـال: « قد أنصف القارة من راماها »[7] .

والقسي هي سلاح الصياد في الجاهلية ، فهي بمثابة (البندقية) في هذا اليوم ، يأخذها الصياد معه وفي كنائنه ، ثم ينتظر ، فإذا شاهد صيداً رماه[8] . ولهذا نجد المولعين بالصيد يذكرونها في شعرهم وفي وصفهم لمطاردة الحيوانات .

---

١ الاشتقاق (٢/٢٩٥) .
٢ بلوغ الارب (٢/٦٥) ، (بلام) العمدة (٢/٢٣٢) .
٣ شرح ديوان لبيد (ص ١٩٥) .
٤ شرح ديوان لبيد (ص ١٩٥) .
٥ بلوغ الارب (٢/٦٥) .
٦ المعارف (ص ١٣٦) ، وفي بعض الاصول (قتره) ، العقد الفريد (٣/٤٠٠) .
٧ العقد الفريد (٣/٣٤١) .
٨ بلوغ الارب (٢/٦٥) .

ومن القسي الجيدة التي تركت أثراً في ذاكرة الشعراء (العتل) واحدها (عتلة) وقد عرفت بأنها القسي الفارسية [1] .

واستعمل الصعاليك واللصوص السهام سلاحاً فتاكاً في ابتزاز المال وسلب المسافرين. والرامي الجيد الرماية ، متغلب على خصومه ، لأنه يرمي وهو على بعد ممن يرميه، فلا يصيبه سيف أو رمح . وبذلك صعب على من لا يحسن الرماية التغلب على الرماة .

والرمي بالحجارة والحصى ، سلاح مهم مؤثر في العدو في ذلك الزمان . فقد كان المحاربون يرمون عدوهم بآلة ما زال الأطفال والفلاحون يستعملونها، يطلقون عليها لفظة (معجان) في العراق . وهي عبارة عن قطعة من جلد أو قماش تشد من طرفيها بحبلين أو خيطين . فإذا أراد الرامي الرمي ، وضع حجراً صغيراً أو حصاة في الجلد أو القماش ، وأمسك بطرفي الحبلين غير المشدودين بالقاعدة، وأخذ يحركها تحريكاً دائرياً بشدة ، ثم يطلق أحد الحبلين بسرعة لينطلق الحجر الى الهدف المراد ، فيصيبه . ويطلق على هذه لفظة (قلع) في العبرانية ، وهي أبسط أنواع آلات الرمي بالحجارة . ويستعملها الفلاحون والرعاة أيضاً لطرد الطيور والحيوانات [2] . ويسمونها في بلاد الشأم (المقلاع) .

وقد كان على المحارب التدرب على الرمي وعلى الطعن، ليكون محارباً ناجحاً ، ذا خبرة في القتال ، فلا يتمكن منه عدو بسهولة . وفي جملة الوسائل التي كان يتدرب عليها : (الدريئة) ، وهي حلقة يتعلم عليها الطعن والرمي . قال عمرو ابن معديكرب :

ظللت كأني للرماح دريئة أقاتل عن أبناء جرم وفرت [3]

ولا بد للمحاربين من أسلحة واقية ، يتقون بها ضربات أعدائهم . وما يرمونهم به من حجارة وسهام . والترس من أقدم الأسلحة الواقية ، يعلقه المحارب على ظهره أو على كتفه ، فإذا احتاج اليه ، أمسكه بإحدى يديه ، ليتقي به ضربات

---

١ المعاني الكبير (١٠٥٣/٢) .
٢ Encyclopaedia Biblica I, p. 249.
٣ تاج العروس (٢٢٣/١) (الكويت) .

خصمه . ويصنع من الحديد في الغالب ، ولارتفاع ثمنه ، لم يستعمله إلا المحاربون الشجعان المعروفون والمحاربون الموسرون . واستعمل الترس المصنوع من الخشب ومن الجلود الثخينة ، مثل جلود الجمال والبقر وبعض أنواع الأسماك والحيوانات الوحشية ذوات الجلود الغليظة .

وبعض الأتراس، دائرية على هيأة قرص ، ومعظم أنواع الأتراس عند الجاهليين وعند العرب الإسلاميين هي من هذا النوع، وبعضها على هيأة مستطيل أو مستطيل ذي رأس مدور أو ثابت أو غير ذلك ، وفي ظهر الترس حلقة أو موضع يدخل المحارب يده فيه ليمسك به الترس ، ويتصل به حبل أو سلسلة ليعلق المحارب به أو بها الترس على جسمه . ويعرف الترس بالدرقة وبالمجن كذلك[1] . وقد ذكر امرؤ القيس المجن فقال :

لها جبهة كسراة المِجَنّ حذفه الصانع المقتدر[2]

ويقال له : (العنبر) كذلك[3] .

ويقال للمجن (ماكين) (ماجن) Magen في العبرانية . وهو قرص دائري الشكل خفيف يحمله المحارب بيده ليدافع به عن نفسه وللاتقاء به من ضربات العدو . ويقال له (كليبوس) Clypeus عند الرمان[4] .

والدروع هي من أسلحة الوقاية ، يتدرع بها المحارب ، ليقي بها نفسه من ضربات خصمه . وقد تكون للظهر وللصدر ، فتحمي ظهر المحارب وصدره ، وقد تكون للصدر فقط، فيقي المحارب بالدرع ضربات المحارب من رمح أوسيف ، فلا ينال به صدره[5] ويعرف أهل الأخبار الدرع بأنها القميص المتخذ من الزرد .

وتعرف الدروع عند العبرانيين بـ (شريون) Shiryon . ويلبس الدرع كالثوب فيقي الجسم من الضربات[6] .

---

١ اللسان (٣٢/٦) ، تاج العروس (١٢٩/٤) .
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٥٨) .
٣ الاشتقاق (ص١٢٩) .
٤ Hasting, p. 51, The Bible Dictionary, I, p. III.
٥ العقد الفريد (٢٠٩/١) (لجنة) ، لسان العرب (٨١/٨) ، تاج العروس (مادة درع) .
٦ The Bible Dictionary, I, p. III.

وقيل للدروع (الخرصان) كذلك ، والواحد خرص ، وقد سموا السدرع خرصاً لأنه حلق ، كما سموا الحلقة التي في الأذن خرصاً . وقيل للدرع سابغة أيضاً[1] . وقيل للرماح الخرصان كذلك[2] .

ومن الدروع المعروفة : (الدروع الحطمية) نسبة الى حطمة بن محارب بن عمرو بن وديعة . وقيل : نسبة الى (حطم) أحد بني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة . و (الدروع السلوقية) ، هي نوع آخر من الدروع المشهورة، يقال : انها نسبة إلى (سلوق) وهي قرية باليمن عرفت بدروعها[3] . وقد ذكر النابغة الدروع السلوقية في شعره[4] . وأشار (ابن مقبل) إلى نوع من أنواع الدروع دعاها (المشرفية) من صنعة مشرف ، ومشرف جاهلي ، وهم يدعون الى ثقيف[5] . كما عرف نوع آخر من الدروع اشتهر باسم (القردماني) ، وذكر بأنه فارسي، وان أصله بالفارسية (كردماند)[6] .

وقد نسبت الدروع الجيدة الممتازة الى (داوود) و (سليمان) فورد في شعر للحطيأة :

فيه الرماح وفيه كل سابغة جدلاء ميهمة من نسج سلام[7]

وورد في شعر للنابغة :

وكـل صموت نثلة تبعية ونسج سُليم كل قضّاء ذائل[8]

ويلاحظ ان البيت المنسوب الى (الحطيأة) ينتهي بلفظة (داوود) بدلاً من (سلام) وهو (سليمان) في بعض الروايات . والمعروف ان (داوود) هو الذي

---

١ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥ وما بعدها) .
٢ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) .
٣ بلوغ الارب (٢/٦٦) .
٤ يقد السلوقي المضاعف نسجه ويوقد في الصفاح نار الحباحب
العقد الفريد (١/٢١٥) ، بلوغ الارب (٢/٦٦) .
٥ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥ وما بعدها) .
٦ المعاني الكبير (٢/١٠٣٠) .
٧ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥) .
٨ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) .

اشتهر بعمل (الدروع) لا (سليمان) على حد قول أهل الأخبار[1] . وقد أشير إلى صنع (داوود) للدروع في بيت شعر (لبشامة بن عمرو) ، وقد وصف دروعه بأنها (موضونة) ، أي مضاعفة ثخينة ، تسمع للقواضب فيها صليلاً[2] ، كما أشير الى ذلك في بيت شعر ينسب الى (الحصين بن الحُمام المري) ، حيث نسب نسج الدروع إلى (داوود) . والغالب عند الجاهليين نسبة إلى الدروع الى (داوود)[3] .

وأما لفظة (سليم) الواردة في بيت (النابغة) ، فتعني (سليمان) أيضاً[4] .

ونحن لا يهمنا في هذا المكان أمر صانع هذه الدروع ، إنما الذي يهمنا هنا هو أثر القصص اليهودي والدعاية الإسرائيلية في نفوس الجاهليين ، مما يدل على أن اليهود المهاجرين الى جزيرة العرب كانوا قد غرسوا بذور الدعاية اليهودية بين الجاهليين حتى تؤثر فيهم ، فكان من أثره مثل هذا القصص الذي نجده في شعر الجاهليين وفي قصصهم المدون في الإسلام .

ولا يستبعد أن يكون في اتجار يهود الحجاز بالأسلحة واستيرادهم إياها من بلاد الشأم لبيعها للعرب أو للاحتفاظ بها لتهديد من يطمع فيهم ولمقاومته ، أثر في ظهور مثل هذا القصص ، وفي نسبة الأسلحة الجيدة الى (داوود) أو (سليمان).

وعرفت الدروع المصنوعة باليمن بالجودة كذلك.وقد نسبت بعضها الى التبابعة ، فقيل (نثلة تبعية) يريدون بلفظة (نثلة) درع . وقيل (مسفوحة تبعية) أي (درع تبعية) منسوبة الى (تبع)[5] .

و (التسبغة) هي : زرد مشبك الحلق متصل بالبيضة يطرح على الظهر ليستر العنق ، فلا تؤثر فيه الضربات والطعن[6] .

ومن الأدوات التي استخدمها المحاربون (البيضة) ، وهي غطاء يوضع على

---

١ المعاني الكبير (٢/١٠٣٥) .
٢ المفضليات ، (اخراج حسن السندوبي) ، القاهرة (١٩٢٦) ، (ص ١٦) .
٣ المفضليات ، (اخراج السندوبي) (ص ٢٠) .
٤ المعاني الكبير (٢/١٠٣٢) .
٥ المعاني الكبير (٢/١٠٣٦) ، المفضليات (ص ٣٥) (حسن المندوبي) ، العمدة (٢/ ٢٣ وما بعدها) .
٦ المفضليات (ص ٣٦) (السندوبي) .

الرأس لحمايتـــه من السيوف والحجارة والعصي وما شابه ذلك[1] . وهي لا بد أن تكون مصنوعة من مواد واقية تحفظ الرأس من الأخطار ، كأن تكون مصنوعة من الحديد أو المواد المعدنية الأخرى أو من الجلود الثخينة .

وقد عرفت (البيضة) المستديرة بـ (تركة) . وورد في شعر (مزرد بن ضرار الذبياني) (تركة حميرية) ، أي منسوبة الى حمير ، مما يشير الى اشتهار هـــذا النوع من آلة وقاية الرأس[2] .

والعمائم خوذ المحاربين عند الجاهليين . فإذا خاض المحارب معركة ما إعتم بعمامة ، وقد يضع عليها ريشة ، وقد يتحنك بذؤابتها ، ولم تكن عمائم الحرب ذوات لون واحد ، بل كانت ذوات ألوان ، قد يدخل المحارب الحرب وعلى رأسه عمامة يختلف لونها عن لون العمامة التي لبسها قبلاً . وقد تحدث أهل الأخبار عن أنواع العمائم التي لبسها المحاربون في القتال .

ولكن هذا لا يعني ان الجاهليين كانوا لا يستعملون الخوذ في حروبهم . لقد كان عرب العراق وعرب بلاد الشأم واليمن يستعملونها أيضاً ، واذا كانت الخوذ قليلة الاستعمال في معظم أنحاء جزيرة العرب ، فإنما يعود سبب ذلك الى غـــلاء ثمنها ، لأنها من المعدن في الغالب ، ولعدم وجود حاجات ملحة اليها هناك . وقد لبس الرومان واليونان خوذاً مصنوعة من النحاس ومن البرنز . واستعملت الخوذ المعمولة من الخشب ومن الجلود والكتان واللباد وبعض المواد الأخرى . وقد تفنن صانعوها في زخرفتها وفي أشكالها،وعلى هذه الزخرفة والمواد المصنوعة منها يتوقف سعر الخوذ بالطبع .

وأما (المجن) و (الترس) و (الدرقة) ، فبمعنى واحد ، وهي لوقاية الجسم من ضربات السيوف . ويصنعها العرب من الجلود في الغالب[3] .

ويقال للزرد الذي ينسج على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة (المغفر)[4] .

---

١ الطبري (٣٧٩/٢) ، بلوغ الارب (٦٧/٢) ، (البيضة والبيض ما يحمى الرأس من سلاح) ، المعاني (١٠٣٢/٢) .

٢ وتسبيغة في تركة حميرية دلامصة ترفض منها الجنادل
المفضليات (السندوبي) (ص ٣٦) .

٣ بلوغ الارب (٢٧/٢) .

٤ اللسان (٢٦/٥) ، تاج العروس (٤٥٠/٣) .

وقد لبس محاربو اليونان والساسانيون ألبسة واقية خاصة لتقي جسمهم من ضربات السيوف وطعن الرماح ومن تساقط السهام عليهم ، كما حموا أرجلهم وأفراسهم أيضاً بأوقية خاصة . بعضها من جلد وبعضها من أقمشة أو من معدن . وقد استخدموا ملابس خاصة صنعت من الزرد أي من حلقات معدنية ، وتدرعوا بألواح من معدن حموا بها أجسامهم ، وبألواح من الجلود الثخينة المدبوغة دبغاً خاصاً لتقاوم الضربات ، وغطوا بها أجسام خيولهم في بعض الأحيان لئلا تصاب، فيسقط بسقوطها الفارس ، ويعجز عن القتال .

وقد اشتهرت (ترسة الروم) بكبرها وبشدتها ، وقد أشير اليها في شعر (ابن مقبل)[1] .

ومن عادات العرب في الحروب انذار من يريدون محاربتهم . كأن يقولون لمن يريدون محاربته : إنا ننذرك بحرب . وهم يفتخرون بذلك ، إذ يرون أن الإنذار بالحرب من سيماء القوة والشجاعة،ومن علامات عدم المبالاة بالعدو . وأن المباغتة من علامات الجبن والضعف . وقد ينذرون عدوهم ويتواعدون معه على الالتقاء في زمن معين وفي مكان معين للحرب . فإذا جاء الأجل التقوا في المكان المعين وتحاربوا فيه .

وتبدأ الحرب عادة بإعلان حالة النفير : أي حالة التجمع والتهيؤ للقتال أو الذهاب الى الحرب . ويكون ذلك بالتبويق ، أي بالنفخ ببوق من معدن أو قرن حيوان أو آلة من خشب ، أو بدق الطبول والدفوف أو بضرب أعواد من خشب، أو بالصياح لإعلام الناس بدنو عدو أو ظهور خطر أو استعداد للقيام بغزو ما ، فيتجمع عندئذ كل قادر على القتال متمكن منه ، حاملاً معه كل ما يحتاج اليه من معدات للقتال ، راكباً أو راجلاً ، لأخذ دوره فيه ، والقيام بالعمل الذي يوكل به اليه. وقد يلحق النساء بالمقاتلين ، فيقمن بإعداد الطعام لهم وما يحتاجونه اليه من خدمات وليس لهؤلاء المقاتلين من أجور ومرتبات غير الغنائم التي تصيبهم والأسلاب التي تقع في أيديهم،فتكون ملكاً لهم،لأن القتال واجب على كل مواطن متمكن محتم عليه ، والامتناع منه جبن ومخالفة لقوانين المجتمع وأعرافه .

وللجيوش ألوية ورايات يحملها أشجع المقاتلين والمعروفون بصبرهم على القتال .

---

١ ديوان ابن مقبل (ص ٢٧٧) (تحقيق الدكتور عزة حسن) .

وإذا قتل حامل الرايـــة ، قام آخر من الشجعان بحملها . ويستميت المقاتلون في الدفاع عن رايتهم ، فسقوط الراية على الأرض أو في يد العدو ، معناه هزيمـــة أصحابها ، وعجزهم عن القتال ، وخور عزيمة المقاتلين عن القتال في النهايـة ، وتلك أمارات الهزيمة والفرار .

ولا يشترط في الأعلام واليارق والرايات أن تكون قديمة متوارثة . فقد تعقد عند بدء الحرب ، يعقدها الرؤساء ، ويسلمونها الى أشجع الناس لتكون سنـــداً للمحاربين ورمزاً يستمدون منه العون والقوة . وتسمى بأسماء قد يتصايحون بها عند احتدام القتال . وذلك لإثارة النفوس ، وبعث الحمية فيها على القتال . أما أمر لون الراية وطولها وعرضها ، فذلك من شأن الرؤساء والمشايخ وزعماء القوم .

ومما يدل على أهمية الراية عند العرب وعلى مكانتها عندهم ، أنهم كانوا يسمون (لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها للجيش أماً)[1] . وكانوا يجتمعون لها في النزول والرحيل وعند لقاء العدو .

ولما تحدث (الحرث بن حلزة اليشكـري) عن (يوم الشقيقة) وعن مجيء (معد) مع (قيس بن معديكرب) ، ذكر ان أحياء (معد) التي اشتركت معه ، كانت تحمل معها ألويتها ، ولكل (حي) لواء[2] .

وكانت لقريش راية يحتفظون بها ويحاربون تحتها تسمى (العقاب) وهي راية قريش ، واذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد ، أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد أخذها صاحبها فقدموه[3] . ولم تكن قريش بدعاً في ذلك ، فقد كانت للقبائل وللحكومات رايات أخرى ، يتوارثونها ويحافظون على تسميتها ، وتحتفظ بها أسر خاصة أو سادات قبائل، تعتز بذلك ، وتعدّها من أعظم درجات الفخر والتكريم .

ولأهمية القائد في المعـــارك ، كانوا يحيطونه بحرس ، ويجعلون أكثر ثقلهـــم حوله . ويكون موضعه في القلب في الغالب ، ليشرف على القتال ، تحميه المؤخرة من الخلف والمقدمة من الأمام ، ويوضع اللواء عنده ، ويحمل بين يديه . وكان

---

١ تفسير الطبري (٣٦/١ وما بعدها) .
٢ شرح المعلقات المسبح ، للزوزني (ص ١٦٤) .
٣ العقد الفريد (٣١٤/٣) .

المسلمون يحملون (العَنَزَة) بين يدي الرسول ، وربما جعلوها قبلة[1] .

وقد كان القادة يستعينون قبل الدخول في القتال بمخبرين يرسلونهم إلى العدو للحصول على معلومات عن قواتهم وعن مواقعهم وعن مدى استعدادهم للحرب . وكذلك كان للقبائل ولأهل المدن مخبرون يرسلونهم لاستطلاع الأحوال ولتحذيرهم من احتمال وقوع غزو مفاجيء عليهم ، أو لتقدير مقـدار الغازين أو المحاربين للاستعداد والتهيؤ . فهم (جواسيس) إذن ، يذهبون للتجسس ولاستراق الأخبار حتى يكون من أرسله على حذر وبينة من أمره ، ويقال للواحد منهم (منذر) في السبئية ، لأنه ينذر قومه وينبههم بقرب وقوع حادث عليهم[2] .

ويقال للشخص الـذي يتسقط أخبار العدو ويبحث عن مواضع ضعفه وعن حركاته وسكناته : (العين) و (الربيء) و (الجاسوس) . وقد كانوا يتنكرون ويتستّرون كي يخفوا هويتهم ويحصلوا على ما يحتاجون الحصول اليه من معلومات ليرتبوا بموجبها خططهم الحربية . روي أن (عمرو بن سفيان الكلابي) ، جاء بني خزاعة في زي رجل من بني هلال ، وأظهر أنه جاء يريد جيرتهم ، وكانوا قد غزوا قومه وساقوا إبلهم ، فقبلوا ايواءه ، وبقي عندهم أمداً ، حتى جمع كل ما احتاج اليه من معلومات عنهم ، ثم خرج منهم وعاد الى قومه فاستفادوا بما كان قد جمعه عن بني خزاعة ، وغزوهم وانتصروا عليهم[3] .

وذكر أنه كان لكليب وائل عيناً في تغلب ، كان يتجسس له ويرسل لـه الأخبار عن هـذه القبيلة[4] . وأن (عمرو بن ربيعة) ارسل سدوس بن شيبان وصليع بن عبد غنم الى معسكر (زياد) ملك الشام ، ليتجسسا عليه ويأتيا له بالأخبار[5] . وهناك امثلة كثيرة من هذا النوع تتحدث عن عيون كانت القبـائل ترسلهم الى القبائل المعادية لهـا لتأتي لها بالأخبار عنها وبنَواياها العدوانية وعن خططها في الغزو .

وقد يكون الرجل بين قومٍ ، فيسمع بخبر عزمهم على غزو قومه ، فيرسل

---

١ البيان والتبيين (٣/٩٥) .
٢ Jamme 643, Mahram, p. 440.
٣ الاغاني (٩/٧) .
٤ ابن الاثير ، الكامل (١/٣٠٢) ، (٣/٣١٣ وما بعدها) .
٥ الاغاني (١٠/٣٦ وما بعدها) ، الدينوري ، عيون (١/١٩٥) .

رسالة رمزية في الغالب أو شفوية ليحذر قومه منه . وقد يكون المنذر أسيراً في أيدي القوم ، فلا يستطيع الهروب من مؤسريه ليخبر أهله بعزم آسريه على غزوهم فيعمد إلى (الشيفرة) وإلى الرموز والكنايات والتعابير التي تفهم القوم بمراده من الرسالة ، فيحتاطوا للأمر ويستعدوا للقتال .

وفي يوم (شعب جبلة) كان (كرب بن كعب بن زيد مناة) ، وهو من بني تميم ، قد علم بخطط أعداء قومه ، وكانوا قد أخذوا عليه عهداً وميثاقاً بألا يتكلم ولا يخبر قومه عن عزمهم فعمد إلى الرمز والاشارة ، بأن وضع تراباً في صرة ، وشوكاً قد كسرت رؤوسه ، وحنظلة موضوعة ووطب معلق فيه لبن ، فلما رأى القوم ذلك ، علموا انه يقول لهم : إن القوم كالتراب عدداً لكن شوكتهم قليلة ، وانهم قريبون منهم ، فعليهم أن يحتاطوا للأمر ، فاحتاطوا منه ، واستعدوا للأمر .

وكان الأعور ، وهو ناشب بن بشامة العنبري أسيراً في قيس بن ثعلبة ، فلما سمع بأن اللهازم تجمعت وهم : قيس وتيم اللات ومعها عجل بن لجيم وعنزة بن أسد ، تريد غزو بني تميم ، قال لآسريه اعطوني رجلاً أرسله الى أهلي أوصيهم ببعض حاجتي . فقالوا له : ترسله ونحن حضور . قال نعم . فأتوه بغلام مولد . فقال ائتموني بأحمق . فقال الغلام : والله ما أنا بأحمق . فقال : إني أراك مجنوناً . قال : والله ما أنا بمجنون . ثم صار يكلمه ويسأله ، ثم أوصاه بأمور لا يفهم منها أن فيها إشارات ورموز ، ووافق القوم على ذهاب الغلام الى قوم ناشب ، فلما كلمهم بما قاله ناشب للغلام لم يدروا ما أراد : فأحضروا (الحارث) ، فقص عليه الغلام قصة ما جرى له مع ناشب ، ففهم المراد . ثم قال للغلام : أبلغه التحية ، وابلغه انا سنوصي بما أوصى به . ثم قال لبني العنبر إنه يحذركم من غزو قريب فاستعدوا وارتحلوا عن ديارهم وبذلك نجوا من خطر الغزو[1] .

وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، حذر بها أناس من رجال ونساء قومهم من غزو سمعوا به ، فخلصوا قومهم منه . أو جعلهم يستعدون له . وقد استعمل المحذرون التراب أو الرمل . للدلالة على كثرة العدو . واستعملوا الشوك للدلالة على القوة وعلى شوكة العدو ، وعبروا بالشوك الذي تكسر رؤوسه ، بشوكة

---

١ ابن الاثير ، الكامل (٢٨٣/١ وما بعدها) .

العدو ، إلا أنه عدو لا يخشى جانبه ، لأنه غير متحد ولا متفق . وقد استمدت القبائل هذه الرموز من محيطها الذي عاشت فيه،فاتخذتها أدوات للتحذير والإنذار .

ويستعين القادة بأدلاء ليقدموا لهم المعلومات عن الطرق الموصلة الى المواضع التي يريدون مقاتلة أصحابها بها ، أو للسير في مقدمة قافلة الجيش للوصول الى المكان المطلوب . وللدليل أهمية كبيرة في القتال ولذلك استعان بهم المحاربون . ويقال للدليل (دلل) في العربية الجنوبية ، والأغلب أنهم كانوا ينطقونها على نحو ما ننطقها بها في عربيتنا . وأما الجمع فـ (دلول) ، أي أدلاء[1] .

وكان لا بد لكل قائد من الاستعانة بدليل إذا ما أراد التفويز ، فقد يهلك الجيش من العطش والجوع ويخطىء هدفه أو يصير فريسة في مخالب من يقصده ، إن لم يستعن بدليل خرّيت مجرب ، له علم بالبادية علمه ببيته . وكان للقبائل أدلاء عركوا المفاوز وخبروها وعرفوا معالمها ومواضع الماء فيها ، وكان لهؤلاء فضل على قبائلهم ، لا يقل عن فضل الفرسان عليها ، لأنهم من أسباب النصر. ولما كتب (أبو بكر) إلى (خالد بن الوليد) يأمره بالمسير إلى بلاد الشأم ، دلّ على (رافع بن عميرة الطائي) وكان دليلاً خرّيتاً ، وبفضل علمه بالطريق وبنصحه القيم لخالد في كيفية عبور المفازة ، وصل الجيش سالماً إلى بلاد الشأم[2] .

وقد فعل الجاهليون ما تفعله القوى المتحاربة في كل وقت من اللجوء إلى التأثير في خصومهم باستخدام (الحرب النفسية) . أي التأثير في نفوس الخصوم حتى يشعر انه دون خصمه ، كأن يتظاهر بأن عدده أقوى وأكثر عدداً من عدد خصمه ، بتوسيع رقعة معسكره وايقاد النيران الكثيرة وإحداث أصوات مرتفعة ، تشعر المتلصص للأخبار ان الجيش جرار ، وان عدده كبير . وبذلك يخافه خصمه وترتعب نفسه . ولما نزل المسلمون (حمراء الأسد) ، (كانوا يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه ، فكبت الله تعالى عدوهم)[3] .

ويعمد الجيش أو القسم منه إلى التستر والتخفي لمباغتة العدو ومفاجأته ، كأن

---

١ Jamme 575, Mahram, p. 430.

٢ الدينوري ، عيون الاخبار (١٤٢/١) ، (التفويز) .

٣ نهاية الارب (١٢٧/١٧) ، (ذكر حمراء الاسد) .

يختفي في موضع حصين لا يرى على طرف أو طرفي وادٍ أو ممر جبل ، فإذا مرّ الجيش من ذلك الوادي انقض المختفون عليه ويعبر عن المخبأ بـ (مغون) في السبئية[1] .

ويقال للعين الذي يذهب يربأ أهله (الربيئة) و (الطليعة) . وهو الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو ، وذكر علماء اللغة ان الربيئة لا تكون إلا على مربأ من الأرض ، أي على جبل أو شرف ينظر منه[2] .

ويبذل القائد كل ذكائه وفنه في خداع خصمه في الحرب ، للتغلب به عليه . وفي الحديث : (الحرب خدعة)[3] . وذلك بأن يتظاهر القائد بعمل شيء ، بينما هو ينوي شيئاً آخر . وقد كان الجاهليون يتفننون في خداع أعدائهم للتغلب عليهم. كما كانوا يستشيرون الناس في ادارة الحرب، يستشيرون الشجعان المتمرسون بالحرب ، كما كانوا يستشيرون من عرف بالجبن ، ثم يخلصون بين الرأيين ، وذلك لما للرأيين من أهمية في ادارة الحرب[4] .

ولقريش عادات في الحرب . فلها (القُبّة) ، وكانت تضربها ، وتجمع اليها ما يجهزون به الجيش . ولها (الأعنة) ، ويكون صاحبها على خيل قريش في الحرب . ولها (السفارة) ، وذلك انهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا سفيراً عنهم ليتفاوض[5] . وكان (خالد بن الوليد) متولي (القبة) و (الأعنة) و (السفارة) عند ظهور الاسلام . وكان لها ما يسمى بـ (حلوان النفر) ، فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً . فإن كانت حـرب ، أقرعوا بين أهل الرياسة ، فمن خرجت عليه القرعة ، أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار ، أقرعوا بين بني هاشم ، فخرج سهم العباس ، وهو صغير، فأجلسوه على المجن[6] .

ويتصايح المحاربون بشعاراتهم ، إذ كان لكل قبيلة شعار ينادون به، ويحافظون

---

١ Jamme 577, Mahram, p. 440.
٢ اللسان (٨٢/١) ، تاج العروس (٢٢٦/١ وما بعدها) ، (طبعة الكويت) .
٣ العقد الفريد (١٢٢/١) ، صحيح مسلم (١٤٣/٥) ، (باب جواز الخداع في الحرب) .
٤ العقد الفريد (٩٥/١) .
٥ العقد الفريد (٣١٤/٣) .
٦ العقد الفريد (٣١٥/٣) .

عليه . فإذا وقعت حرب ، أو حدث غزو ، نادوا بذلك الشعار لايقاظ الهمم ، وإذكاء النيران في القلوب . وقـد كان شعار (بني عامر) في الحرب شعاراً واحداً ، هو : (يا جعد الوبر)[1] . ويعد هز الراية إشارة للهجـوم[2] ، فيهجم المحاربون ، ويقع الاشتباك .

وأكثر ما يغزو العرب عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح . وسبب ذلك أن الناس يكونون مستغرقين في هذا الوقت في نوم لذيذ ، لذلك تكون الغارة فيه مفاجأة مفزعة لهم . والعرب تقول إذا نذرت بغارة من الخيل تفجؤ صباحاً: يا صباحاه ! ينذرون الحي أجمع بالنداء العالي . ويقولون : صبحتهم الخيـل : بمعنى جاءتهم صبحاً . وفتى الصباح ،أي فتى الغارة ، تعبيراً عن شجاعته وبطولته[3].

ويثير سادات القبائل وقادتها في الحرب هم المحاربين بخطب حماسية يلقونهـا عليهم ، يحرضونهم فيهـا على القتال وعلى التعاون فيما بينهم وعلى إطاعة أوامر قادتهم وعدم مخالفتها بتاتاً وعلى اظهار الشجاعة لأنها من سجايا الرجال وعلى عدم المبالاة بالموت والصبر ، لأن من صبر ظفر . الى غير ذلك من خطب في الحث على الإسهاتة نجد بعضها مدوناً في كتب أهل الأخبار[4] .

وكانت العرب إذا تواقفت للحرب تفاخرت قبل الوقعة فترفع أيديها وتشير بها فتقول : فعل أبـي كذا وكذا ، وقام بأمر كذا وكذا ، ويفعـل الطرف الثاني مثل ذلك ويبدأ القتال[5] .

وتبدأ المعركة في الغالب بالمبارزة ، بأن يخرج من كل جانب محارب أو أكثر ، يتبخترون تباهياً بأنفسهم ، وقد يتحلقون ويتعطرون ، وينشدون شعراً يفاخرون فيه بأنفسهم وبأهليهم ، وبقبائلهم وبأحسابهم وأنسابهم ، وقد يسأل المبارز مبارزه فإذا وجد أنه غير كفء له انتقصه ورفض مبارزته . أما إذا وجد أنه كفؤ له،بارزه وضاربه ، فيكر أحدهما على الآخر ، وهكذا تستمر المعركة مبـارزة بين محاربين أو أكثر ، حتى تنتهي بالتحام قد يؤدي الى هزيمة أحد الطرفين ، أو لا يؤدي

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٧) .
٢ العقد الفريد (١/١١٤) (لجنة) .
٣ اللسان (٢/٧ وما بعدها) .
٤ الاغاني (١٦/٧١) ، الامالي (١/١٦٧) ، ابن الاثير ، الكامل (١/٣٨٠) .
٥ اللسان (١١/٦٢٥) .

الى أية هزيمة بالمعنى المفهوم ، إنما ينسحب أحد الطرفين ويتراجع الى مكانه فتنتهي بذلك تلك الحرب .

وإذا برز المبارز ، فيعلم على رأسه في الغالب ، بأن يلبس سامـــة خاصة أو عصابة أو يضع ريشة يتباهى بها ، وقد يستعملون الخوذ ، إلا أنها كانت قليلة الاستعمال لدى الأعراب ، لغلاء ثمنها عندهم . وقد كان (أبو دجانـــة) يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان اذا أعلم رأسه بعصابة له حمراء ، علم النـاس أنه سيقاتل[1] .

ويقسم المحاربون قواتهم الى مجنبة وقلب : مجنبة يمنى تهاجم أو تحمي الجانب الأيمن ، ومجنبة يسرى تحارب وتدافع عن الجانب الأيسر من المحاربين . أما القلب ، فيكون واجبـــه الهجوم أو الدفاع من الوسط ، أي وسط الجيش . وقـــد تقوم المجنبتان بالهجـــوم لتطويق العدو وحصره في دائرة ، تضيق عليه . وفي معركة (يوم نخلة) من أيام الفجـــار ، كان حرب بن أمية في القلب ، وعبدالله بن جدعان وهشام بن المغيرة في المجنبتين[2] .

وتوضع أمام الجيش أو المحاربين مقدمة ، تتقدم المقاتلين ، يكون واجبها حماية القسم الأكبر من الجيش الذي يكون وراءها ، وارسال المعلومات عن العدو واشغاله بالقتال إن وقع حتى يأتي المحاربون . ويقال للمقدمة (مقدمت) ، أي (مقدمة) في السبئية[3] . وللذي يتولى أمرها ويقودها : (قدم)[4] .

ويقال لطليعة الجيش ، وهي التي تتقدم الجيش ، للقاء العـدو وللوقوف على أمره وخبره (نذيرة الجيش)[5] .

ولما ندب رسول الله المسلمين لفتح مكة ، قسّم الجيش إلى مجنبتين ، وهما : الميمنة والميسرة ، والقلب بينهما . وكان ترتيب الجيش إذ ذاك على خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة . ولهذا كان يسمى خميساً . وجعل رسول

---

١ الاغاني (١٤/١٦) .

٢ الاغاني (١٩/٧٤ وما بعدها) ، قال عمرو بن كلثوم :
وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرون بنو أبينا
المعلقـــة

٣ Jamme 576, 665, Mahram, p. 440.

٤ Jamme 681, 816, Mahram, p. 447.

٥ اللسان (٥/٢٠١) .

الله على (الحسر) ، وهم الذين لا دروع عليهم (أبا عبيدة) . ويقال لهم (البياذقة) ، وهم الرجالة ، واللفظة فارسية معربة ، سمّوا بذلك لخفة حركتهم وانهم ليس معهم ما يثقلهم . وقد كانت اللفظة معروفة في أيام الرسول . وهم رجالة لا دروع عليهم ، أي حسراً [1] .

وقد استخدمت هذه التعبئة الخماسية في اللقاءات الكبيرة ، أي في الاشتباكات الضخمة ، التي يمكن أن نسميها (حروباً) . أما في الغارات وفي الغزو فكانوا يتبعون طريقة المباغتة والهجوم من كل جانب يمكن الهجوم منه .

ويقال للقطعة من الجيش تمرّ قدّام الجيش الكبير (منسرت) (منسرة) في السبئية ، ويراد بها (المنسر) في عربيتنا . ورد في النص : Jamme 631 (ومنسرت خمس) ، أي (ومنسرة الجيش) ، أو (ومنسر الجيش) بتعبير أفصح [2] .

ويذكر علماء اللغة ان (الكردوس) القطة من الخيل العظمية . والكراديس الفرق منها [3] . فالكردوس إذن حسب هذا التعريف القطعة من القوات الراكبة المحاربة .

وقد كان النظام العشري في تنظيم الجيش ، هو النظام المتبع في الأرضين التابعة للامبراطورية اليونانية وفي الأرضين المتأثرة بثقافتها ، فلا يستبعد أن يكون تأليف الجيش في اليمن في أيام احتلال الحبش لها على هذا الأساس أيضاً . وأصغر وحدة عسكرية وفق هذا التنسيم ، هي الوحدة المكونة من خمسة جنود ، تليها وحدة مؤلفة من عشرة ثم من مضاعفات العشرة . ويحكم كل وحدة ضابط يدير شؤونها ويقوم بتدريبها وبالاشراف على سيرها وادارتها في أثناء السلم وفي أثناء القتال .

وقد يكون القتال صفوفاً ، بأن يتقدم المحاربون فيحاربون صفاً صفاً ، وذلك إذا كان المحاربون كثيرين . والى هذا النظام أشير في القرآن الكريم : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . وقد اتبع علي بن أبي طالب هذه الطريقة في يوم صفين . وأشار اليها في خطبته في أصحابه

---

١ صحيح مسلم (٥/١٧٠ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) ، تاج العروس (٦/٢٨٤) (الباذق) .

٢ Jamme 631, Mahram, p. 132.

٣ اللسان (٦/١٩٥) ، الروض الانف (١/٦٩) .

يعلمهم كيفية القتال[1] .

أما في حروب القبائل وغزو بعضها بعضاً ، فتكون المباغتة هي الأساس في الحرب ، وتقوم على مهاجمة العدو بغتة ومفاجأة وهو في عقر داره أو في الموضع المتجمع فيه . وتتوقف المباغتة على حساب القائد وعلى حنكته في تقديره موقف عدوه . ويكون للماء الفضل الأكبر في النصر وكسب الحرب ، لما له من شأن خاص في البوادي . لذلك كان يحسب له سادات القبائل الذين يقودون قبائلهم في القتال والغزو حساباً كبيراً ، فيحملون معهم مقادير كبيرة منه تكفيهم المدة التي يقدرونها للقتال ، أو يحاولون استباق عدوهم الى مواضع الماء للسيطرة عليها ، فإذا جاء العدو حرم الماء واضطر إلى استهلاك ما يحمله منه . وقد يؤدي نفاده إلى هزيمته وفراره . ويقال للمباغتة ولأخذ العدو بصورة مفاجئة (بحض) في لغة المسند[2] .

ويعبر عن الحملة ، أي عن الجماعة من الجيش تزحف على عدو بـ (برث) في المسند[3] .

وقد عرف قادة الجيوش أهمية طبيعة الأرض في كسب النصر وفي الدفاع . لذلك كانوا إذا تحاربوا تسابقوا الى مواضع الماء لتكون في مؤخرتهم حتى يستقوا منها ويمنعوا العدو من الشرب منها ، كما كانوا يضعون الشمس عند ظهورهم حتى لا تؤثر على أعينهم ، ويرتقون المرتفعات حتى يصعب على العدو الارتقاء اليهم بفعل الحجارة أو النبال التي ترمى عليه . فلما كان يوم شعب جبلة صعدت بنو عامر الى الشعب ، ووضعت نساءها وما معها من الإبل والمؤن عليه . وكانت قد أعطشت إبلها وعقلتها ، وصارت هي دونه . فلما وقع القتال واشتد عمدت بنو عامر الى الحيلة والى تنفيذ خطة كانت قد وضعتها فأخذت تتراجع وتزحف نحو أعلى الشعب ، وصار العدو يتعقبها حتى بلغوا وسط الجبل . فقال الأحوص قائد بني عامر ، حلوا عقل الإبل ثم احدروها ، واتبعوا آثارها ، وليتبع كل رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة ففعلوا ، ثم صاحوا بها فلم يفجأ الناس إلا الإبل تريد الماء والرعي وجعلوا يرمونهم بالحجارة والنبل واقبلت الإبل تحطم كل

---

١ بلوغ الارب (٢/٦١) .
٢ South Arabian Inscriptions, p .428.
٣ South Arabian Inscriptions, p. 430.

شيء مرت به . فانحط العدو منهزماً ، فلما بلغ السهل لم يكن لأحد منه همة إلاّ أن يذهب على وجهه ، فجعلت بنو عامر تقتلهم وتصرعهم بالسيف فانهزم عدوهم شر هزيمة[1] .

ولتقوية معنويات المحاربين في أوقات العسر والخطر،ولبعث الحمية في نفوسهم يقيد الرؤساء أنفسهم بقيود ، مجتمعين أو فرادى ، ثم يعلنون أنهم لا يبرحون مكانهم هذا حتى يهلكوا أو يربحوا[2] . وقد كان العجم ، يضعون السلاسل في أرجل المحاربين لمنعهم من الفرار ، ولإجبارهم على الاستماتة في القتال .

وقد كان كثير من المحاربين يأخذون زوجاتهم وذراريهم معهم في المعارك ، ينقلونهم معهم وكأنهم ذاهبون الى سفر أو رحيل الى بلاد جديدة . وحكمتهم من ذلك أن الرجل منهم إذا رأى خلفه أهله وماله ، قاتل عنهم[3] . ولعلهم كانوا يستعينون بهم في جمع الغنائم والأسلاب وحراسة ما يقع في يد المحارب من أسرى.

وكانوا يضعون أُسَرَهم وإبلهم ومؤنهم وظعائنهم في مؤخرة الجيش ، وذلك حتى تكون في مأمن من العدو بعيدة عنه ، وتكون بذلك مدعاة للنصر[4] .

وقد استعانوا بالنساء في حروبهم،وأوكلوا اليهن أعمال الاسعاف وضرب العدو ومقاتلته في أوقات الشدّة . فلما قاتلت (بكر بن وائل) (بني تغلب) ، قال (الحارث بن عباد) للحارث بن همام بن مرة ، وكان على (بكر بن وائل): « إن القوم مستقلون قومك ، وذلك زادهم جراءة عليكم فقاتلهم بالنساء ! قال له الحارث بن همام : وكيف قتال النساء ؟ قال : قلد كل امرأة إداوةً من ماء وأعطها هراوة واجعل جمعهن من ورائكم فإن ذلكم يزيدكم اجتهاداً وعلموا بعلامات يعرفنها ، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه فأطاعوه . وحلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها استبسالاً للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ، واقتتل الفرسان قتالاً شديداً ، وانهزمت بنو تغلب ولحقت بالظعن بقية

---

١ الاغاني (١٠/٣٧) .
٢ الاغاني (١٩/٧٨ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (١/١٥٧) .
٤ مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧١ وما بعدها) .

يومها وليلتها واتبعهم سرعان بكر بن وائل »[1] .

وقد أشركوا أصنامهم معهم في الحروب ، أشركوها معهم لتمنّ عليهم بالنصر والتأييد . وقد سقطت أصنام القبائل العربية أسيرة بأيدي الآشوريين ، وكانوا قد حملوها معهم للتبرك بها ولاكتساب النصر ، فأسرها الآشوريون . واضطر الأعراب على مراجعتهم لاعادتها اليهم . وفي يوم (الزورين) ، وهو لبكر على تميم ، أخذت تميم بعيرين مجللين ، فعقلوهما ، وقالوا : هذان زورانا ، أي إلهانا لن نفر حتى يفرا ، وهزمت تميم ذلك اليوم . وأخذ البكران ، فنحر أحدهما وترك الآخر يضرب في شولهم[2] . وذكر ان (الزور) كل ما يعبد من دون الله ، كالزون . والزون الصنم[3] .

والفرسان هم آلة الحرب الحاسمة للحروب ، وعليهم يقع معظم ثقل المعارك . وقد كانت معظم معارك الجاهلية معارك فرسان ، يكون المحاربون الآخرون فيها وكأنهم متفرجون ، يساهمون في المعركة بأصوات التشجيع والحث على الاستماتة في القتال . وقد يدخل القائد نفسه المعركة ليقاتل خصمه . وللفارس بالطبع منزلة كبيرة في نفوس قومه ، لأنه هو المدافع والمهاجم والآخذ بالثأر .

وقد حفظت كتب الأخبار أسماء جماعة من فرسان الجاهلية وشجعانها ممن كان لهم شأن يذكر في الشجاعة في تلك الأيام ، من هؤلاء : ربيعة بن مكدّم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة ، وكان كما يقول أهل الأخبار يعقر على قبره في الجاهلية ، ولم يعقر على قبر أحد غيره[4] . فعلوا ذلك تكريماً لشأنه وتعظيماً له . وقد ذكر قبره وعقر الناس عليه في شعر بعض الشعراء[5] .

ومن بقية فرسان العرب في الجاهلية : عنترة الفوارس ، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب ، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام ابن قيس ، واحيمر السعدي ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن عبد ود ، وعمرو

---

١ بلوغ الارب (٢/١٤٨) .
٢ تاج العروس (٣/٢٤٥) ، (زاد) ، (بكرين مجللين) .
٣ المصدر نفسه ، (٩/٢٢٩) ، (زون) .
٤ العقد الفريد (١/١٣٦) .
٥ المصدر نفسه ، بلوغ الارب (٢/١٢٥) .

ابن معديكرب[1] ، وبسطام بن مسعود الشيباني سيد شيبان ، قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة[2] .

ويقال للفارس ، أي لراكب الفرس (فرس) في العربية الجنوبية ، ولمّا كانت الكتابة العربية الجنوبية لا تشكل الحروف ولا تضبط كيفية النطق بها ، لذلك فمن الجائز أن العرب الجنوبيين كانوا ينطقون بها على نحو ما تنطق بها في عربيتنا أي (فارس) . وأما الجمع في تلك اللهجة ، فهو (افرس) (أفرس) ، أي (فرسان)[3] .

وقد كانت لسرعة الفرسان أهمية كبيرة في نتائج القتال . إذ كانوا ينقضون على المحاربين المشاة وعلى المدن أو القبائل انقضاض الصواعق ، ويربكوا الخصم فيمهدوا بذلك لمشاتهم من التغلب على العدو . ويظهر من الكتابات التي يعود عهدها الى ما قبل الميلاد أن عدد الفرسان في الجيوش العربية الجنوبية المحاربة لم يكن كبيراً ، وأن أكبر عدد منها لم يتجاوز عن بضع مئات . وسبب ذلك على ما يظهر قلة وجود الخيل إذ ذاك . ولا يستبعد أن يكون استيراد الخيل الى هناك من عهد غير بعيد بعداً كبيراً عن الميلاد .

أما الذين يقاتلون وهم على ظهور حيوانات أخرى ، كالجمل وهو في الغالب، فيقال لهم (ركبم) (ركب) ، أي (راكب)[4] . وقد عرف العرب بقتالهم وهم على ظهور الجمال . وفي الكتابات الآشورية وكتابات المسند صور عرب وهم يحاربون من على ظهور جمالهم ، وذلك لقلة وجود الخيل عندهم في ذلك الوقت.

وللجاهليين آراء في كيفية الاستفادة من الخيل في القتال، فكان خالد بن الوليد لا يقاتل إلا على أنثى ، لأنها أقل صهيلاً من الفحل ، وكانوا يستحبون أناث الخيل في الغارات وفي (البيات) أي الإغارة على العدو ليلاً ولما خفي من أمور الحرب . وكانوا يستحبون فحول الخيل في الصفوف والحصون والسير والعسكر ولما ظهر من أمور الحرب ، وكانوا يستحبون خصيان الخيل في الكمين والطلائع ،

---

١ العقد الفريد (١٣٧/١)
٢ البيان (٢١/١) (لجنة) .
٣ (وافرسهمو) الفقرة (١٥) من النص :
Jamme 576, Mamb 212, Mahram, p. 67, 446, Jamme 577, 584, 635, 644.
٤ Jamme 560, 576, 644, 649, 665, Mahram, p. 448.

لأنها أصبر وأبقى في الجهد[1] .

ويعبر عن الجرح بـ (زسخنت) (زخنة) ، وبـ (زسخن) عن فعل يجرح ، وذلك في العربية الجنوبية[2] .

التحصينات :

وتدافع بعض المستوطنات،مثل قرى الريف والمدن ، عن نفسها بإنشاء تحصينات تقيها من هجمات عدوّ ما . وتشمل هذه التحصينات حفر خندق، واقامة أسوار ، وانشاء أبراج وحصون وآطام وأمثال ذلك . وقد كانت مدينة الطائف ذات سور حصين ، تغلق أبوابه آناء الليل وأيام الخطر،وقد تحصنت به ثقيف يوم حاصرهم الرسول . وقد عثر على آثار أسوار في خرائب مدن اليمن ، تدل على ان تلك المدن كانت مسورة محصنة ، وقد عثر على آثار قلاع وحصون وأبراج في تلك الأسوار على مسافات وأبعاد معينة تشير إلى انها كانت لتحصين السور وللدفاع عنه ولضرب الأعداء عند محاولتهم الدنو منه .

وتعرف أبراج السور المقامة لحمايته ولتقويته ولضرب العدو منه بـ (فنوت) في العربيات الجنوبية ، ويطلق العبرانيون هذه اللفظة على مثل هذا البرج أيضاً[3] .

ويقال للحصن والبرج (مكدل) (مجدل) في العبرانية[4] . وبهذا المعنى ترد اللفظة في عربيتنا كذلك . وقد ذكر علماء اللغة ان الاجتدال : البنيان ، وجاء في شعر للأعشى :

في مجدل سدّ بنيانه يزل عنه ظفر الطائر[5]

وتستعين القرى بالمجادل في الدفاع عن نفسها ، وتكوّن أبراج مراقبة أيضاً ، يراقب منها العدو ، وتكون مواضع دفاع لأهل القرى ، أو العاشر،حيث لا أسوار

---

١ نهاية الارب (٩/٣٦٥ وما بعدها) .
٢ Jamme 649, 687, Mahram, p. 435.
٣ Smith, Dictionary of the Bible. I, p. 334, 615.
٤ Ency. Bibl., I, p. 834, Hastings, I, p. 358.
٥ في الصحاح (شيد) ، اللسان (١١/١٠٥) (صادر) ، (حصون المدينة) ، الطبري (٢/٥٧٣) .

تحمي ولا خنادق تعيق العدو من التقدم[1] .

ويعبر عن تحصين المواضع وتقويتها لتتمكن من الدفاع عن نفسها بلفظة (تمنع) في السبئية ، أي اكساب الموضع مناعة[2] .

ولم يكن في وسع الحكومات أو الإمارات والمشيخات تحصين كل المستوطنات والقرى لما يتطلب ذلك من جهد ومال . ولقلة عدد سكان هذه الأماكن قلة تجعل من الصعب عليهم أن يقوموا وحدهم بانشاء حصون وإقامة تحصينات وبناء أسوار وحفر خنادق . ولذلك احتمى سكان أمثال هذه المستوطنات بحصون الإقطاعيين الذين أقاموها لحماية ممتلكاتهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم ، وبوسائل دفاع أخرى لا تكلفهم كثيراً لضمان سلامتهم وسلامة أموالهم ومقتنياتهم في السلم والحرب .

أما المستوطنات الكبيرة ، من درجة مدينة ، فإنها تحاط في الغالب بأسوار لها أبواب تغلق في الليل ، فلا يسمح بالدخول أو الخروج منها ، ويحافظ عليها ، ولا سيما في أثناء الخطر ، حرّاس يسهرون عليها لمنع أي عدوّ طامع في المدينة من الوصول اليها . ويقال لهذه المدن (هكر) (هجر) في العربيات الجنوبية . فحيث ترد لفظة (هكر) في المسند فإنما تعني مدينة ذات أحياء وسكان كثيرين، ولها أسوار في الغالب تحميها من هجمات الأعداء .

وتعبر العبرانية عن المدينة المحصنة المحاطة بسور ، بلفظة (عر) ، وذلك لتمييزها عن المدن المحصنة بحصون ، والتي يقال لها (عر مبصر) Ir Mibsar ، وعن القرية التي يقال لها (حصر) (حصور) و (قره) (قريت)، وتكون غير مسورة[3] . أما (العر) في العربية الجنوبية فبمعنى (حصن) ، وموضع محصن . وتطلق اللفظة على المواضع المحصنة بعرّ ، أي حصن ، أي في معنى قريب من المعنى الوارد في العبرانية[4] . وتذكر كتب اللغة أن العرار : القتال ، وأن العرة الشدة في الحرب[5] . فللفظة صلة بالقتال إذن . ويوجد موضع يقع في

---

١ Smith, Dictionary. I, p. 615.

٢ Jamme 643, Mahram, p. 450.

٣ Roland de Vaux. Ancient Israel, London, 1961, p. 229, Smith, Dictionary, I, 333.

٤ South Arabian Inscription, p. 445.

٥ اللسان (٤/٥٥٦) ، (صادر) .

ملتقى طرق يقع في (وادي مسيلة) يسمى (حصن العسر) بني على مرتفع صخري بارز كان حصناً مهماً لحماية الأرضين المحيطة به ولحماية القوافل التي تمر بهذا الوادي المهم[1] . ولا تزال بقايا هذا الحصن باقية،وقد أقيمت جدره من حجارة صلدة نضدت بعضها فوق بعض تنضيداً جيداً ، وقد صقلت الأحجار صقلاً يدل على مهارة ، وقد تألف الحصن من غرف كثيرة ، ويبلغ طوله (٩٠) متراً . وبه آثار معبد ، وآبار لاستخراج الماء منها للشرب وللاستعمال[2] .

ويعبر عن المانع الذي يحول بين العدو وبين الدنو من المكان الذي يريده بـ (حيل) في العبرانية[3] . أي (الحائل) ويراد به الخندق[4] . وقد ورد في كتب اللغة ان (الحيل) الماء المستنقع في بطن واد[5] . و (الحائل) هو المانع ، أي الحاجز الذي يحجز أهل الموضع الذي تحصن الناس به عن عدوهم ، وهو سور أو خندق أو أي شيء آخر يتخذ للدفاع عن النفس .

ومن بين الحوائل والموانع التي استعملها الجاهليون لصد العدو من الزحف على بلادهم أو التسلل إلى أرضهم سد الممرات الجبلية والأودية ومفارق الطرق المهمة، ببناء جدر وأسوار لتحول بين المرور والتسلل إلا بأمر وتخويل ، ويكون المرور عندئذ من الأبواب المخصصة للعبور فقط . ومن أمثلة ذلك سد (أبنة) (لبنة) الذي أقيم في وادي (أبنة) ليسد الطريق على القادمين أو الذاهبين من (شبوة) إلى ميناء (قنا) (قنى) (قانة) Cane المهم[6] . وقد بني عند مضيق يبلغ عرضه (١٨٠) متراً ، أما ارتفاعه فجعل حوالي خمسة أمتار ، فأما ثخنه فحوالي المترين . وقد بني بحجارة مصقولة صقلاً جيداً ورصفت رصفاً حسناً وربط بينها ملاط قوي شد الأحجار شداً . وقد جعل له باب عرضه خمسة أمتار يمكن غلقها بإحكام ، ولزيادة مقاومتها توضع صفوف من الأحجار الثقيلة خلفها أيام الخطر ، فتسد بها وتكون وكأنها قد سدت بجدار قوي سميك . وهناك آثار جدر أخرى

---

١ Grohmann, S. 154.

٢ V. Wissmann, Hadramout, p. 152, Grohmann, S. 154.

٣ Ency. Bibli., I, p. 615.

٤ Smith, Dictionary, I, p. 615.

٥ اللسان (١١/١٩٦) .

٦ (على ساحل بحر الهند مما يلي بلاد العرب قرب ميفع) ، تاج العروس (١٠/٣٠٥) (قنى) .

أقيمت لغايات مماثلة تقع في (وادي العروس) (وادي عروس) وفي (عنصاص) ويرجع تأريخها إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد[1] .

وتختلف الأسوار من حيث المتانة والتحصينات والمواد التي تبنى بها باختلاف قدرة المدن المالية ، فبعضها ذات أسوار ثخينة متينة ، لها تحصينات قوية ، يحتمي بها المدافعون لمقاومة المهاجمين ولرميهم بمعدات المقاومة ، لها مزاغل وفتحات ينظر منها المدافعون إلى أعدائهم ، فإذا اقتربوا من السور ، رموهم بالسهام وبالحجارة وبالمواد المشتعلة ، وسكبوا عليهم الماء الحار أو الزيت المغـلي إذا أرادوا إحداث ثغرة فيه أو قلع الأبواب وكسرها .

وعند أبواب المدن أو أبواب المعابد أو المباني العامة أو الشعاب ، تكون رحاب ، يتخذها سكان المدن مواضع يبيعون فيها ويشترون وأماكن للتجمع . وتعرف الواحدة بـ (رحبة) وتسمى (رحبوت) و (رحب) في العبرانية[2] . وفيهـا تعقد الاجتماعات العامة ، ويتجمع الناس لسماع الأخبار ، وفيها تنفذ الأحكام العامة ، مثل تنفيذ أحكام الاعدام والاعلان بالمجرمين . وتكون مرابد تنعقد فيها الأسواق أيام الأسبوع ، أو في أيام خاصة منه ، أو في السنة .

وأبواب المدة المسورة ، هي المنافذ الوحيدة التي يدخل منها الناس ويخرجون . وتختلف في السعة ، فلبعضها أبواب واسعة في كل منها مصراعان ، ولبعضهـا مصراع واحد . وتكون ثخينـة متينة ، وقد تقوى بكسوتها بطبقة من حديد أو من معدن آخر ، ليكون في امكانها مقاومة المهاجمين ، فلا تتحطم وتنهار بسرعة ، ولا تأكلها النار . وتغلق بمغاليق متينة . تقوى بحجارة وبأخشاب متينة عند حدوث خطر ما . وأما المجازات التي تلي الأبواب وتؤدي الى الرحاب ، فهي مختلفـة الأشكال . ويحتمي بها المدافعون أيام الخطر ، لسدها ، ولشد أزر الأبـواب على الوقوف صامدة أمام المهاجمين . وقد يواجه الباب ، جدار متين ، يجل المجـاز على هيأة غرفة ، يخرج الناس ويدخلون في ركن من أركانها يربط بـين المجاز والرحبة المؤدية الى الشعاب . وذلك ليكون من العسير على المهاجمين الولوج في المدينة عند تمكنهم من تحطيم الأبواب . وقد يقوى الباب ببرج يبنى فوقه ، يكمن فيه المقاومون ، لرمي العدو ولإلحاق الأذى به إذا ما حاول مهاجمة الباب .

---

١ Grohmann, S. 155.

٢ Smith, Ency. Bibli., I, p. 335.

وتسدّ منافذ شعاب المدن بأبواب كذلك ، لتقي من في الشعـاب من أخطار الأشرار والمعتدين . وتغلق هذه الأبواب في الليالي . وقد تحاط الشعاب بسور يمنع الناس من الدخول الى الشعب إلا من الباب المؤدي اليه . وفي المـدن الملكية ، تحاط قصور الملوك ومخازنهم ومداخرهم بأسوار قوية تحميهم من المعتدين . وقـد تبنى قلاع في مواضع مرتفعة من المدن ، أو على تلال صناعية ليقاوم منها الناس عند انهيار المقاومة الخارجية ، فتكون بذلك آخر وسائل المقاومة قبل الاستسلام .

أما القرى ، فيدافع عنها بحصون وآطام وبمجادل وذلك لفقـر أهلها وعـدم تمكنهم من إقامة سور قوي يحمي القرية . وقد كان يهود الحجـاز الساكنون في شمال المدينة ، قد حصنوا قراهم بآطام يلجأون اليها ويحتمون بها أيام الخطر . وقد عرفت هذه الحصون عندهم بـ (آطام) وواحدها (أطم) . وأما القرية ، فهي (قرية) في العبرانية ، وتسمى بـ (قريتا Keritha) في لغة بني إرم[1] .

ويقال للحصن (الأجم) والجمع (آجام) ، وقد ورد ذكر الأجم في شعر لامرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أجماً إلا مشيداً بجندلِ[2]

ويقال للحصن (الأطم) كذلك ، والجمع آطام . ولا تزال آثار آطام جاهلية باقية في الحجاز وفي نجد وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب وفي (وادي الحفر) بنجد ، ويعرف بـ (حضر بني حسين) ، آثار قصور وآطام جاهلية وآبار كثيرة[3].

وذكر بعض علماء اللغة ان الآطـام : القصور والحصون ، وخصصها بعض آخر بالدور المسطحة السقوف . وقد اشتهر (الأبلق) ، وهو حصن (السموأل ابن عادياء) في التأريخ ، وهو في تيماء . وورد اسمه في شعر للأعشى مدح به السموأل[4] . وكانت الأوس والخزرج تتمنع بالآطام ، وتحارب عليها ، وقد أرخت بحرب وقعت فيما بينهم بها ، فقالوا : (عام الآطام) ، وقد أخربت في أيام

---

١ Smith, Dictionary, I, p. 333, Ency. Bibll., I, p. 833.
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٥٨) .
٣ صحيح الاخبار (١/١٣٢) .
٤ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٨٦) .

عثمان[1] . ويقال للأطم : الأجم أيضاً[2] .

فكانت الآطام هي وسائل الدفاع عند أهل يثرب ، إذ لم يكن حولها سور يحميها من غزو الأعداء . فكانوا إذا حوصروا أو وقع غزو عليهم ، لجأوا إلى آطامهم يتحصنون بها ويقذفون من أعاليها بما عندهم من وسائل دفاع لمنع العدو من الدنو منهم ولإلحاق الأذى به . وهي جملة آطام تملكها البيوتات العريقة وسادات الشعاب المكونة ليثرب والقائمة على أساس التقسيم العشائري[3] .

والآطام بيوت السادات ورؤساء القوم ، يلجأ اليها الناس للدفاع عن أنفسهم وعنها وقت الخطر . ويظهر من شعر أوس بن مغراء السعدي :

بَثَّ الجنود لهم في الأرض يقتلهم ما بين بصرى الى آطام نجران[4]

أن نجران كانت ذات آطام كذلك .

وذكر أن باليمن حصن يعرف بأطم الأضبط ، وهو الأضبط بن قريع بن عوف بن سعد بن زيد مناة . كان أغار على أهل صنعاء وبنى بها أطماً . ونسبوا له شعراً ، من هذا الشعر الذي يحمل طابع العصبية القبلية ، والحقد على اليمن . يذكر فيه أنه شفى نفسه من (ذوي يمن) ، بالطعن في اللبات والضرب ، وأباح بلدتهم ، وأقام حولاً كاملاً يسبي ، وبنى أطماً في بلادهم ليثبت تغلبه عليهم ، وليكون أمارة على قهره لهم[5] .

وقد اشتهر أطم (الضاحي) بالمدينة . وهو أطم بناه (أحيحة بن الجلاّح) من سادات يثرب بـ (العصبة) في أرضه التي يقال لها (القنانة)[6] .

وكان دفاع أهل الحيرة عن مدينتهم وفق هذه الخطة أيضاً . فقد كانت المدينة (قصوراً) كل قصر لعائلة كبيرة ، هو مسكن لها ، وهو مخزن ومستودع

---

١ التنبيه والاشراف (١٧٦) .
٢ الطبري (٢/٥٦٨) .
٣ الطبري (٢/٥٧٥) ، تاج العروس (٨/١٨٧) ، (أطم) .
٤ اللسان (١٢/١٩) ، (أطم) .
٥ اللسان (١٢/١٩) ، (أطم) ، وفي الشعر ضعف وتكلف ، وهو من الموضوعات . وضعه المتعصبون على اليمن ، وفي أغلب هذا النوع من الشعر ، ضعف وتكلف ، وطابع الصنعة ظاهر عليه .
٦ تاج العروس (١٠/٢١٧) ، (ضحى) .

وحصن تتحصن به عند وقوع خطر على المدينة . وبه مواضع في أعلى القصر لرمي الأعداء ، ويلجأ أتباع أصحاب القصور الى هذه القصور أيضاً للمساهمة في الدفاع عنها وفي حماية أنفسهم من الأذى . ولما حاصر المسلمون الحيرة ، كان حصارهم لها هو حصار قصورها، فكانوا يحاربون القصور حتى غلب المسلمون أهلها فاستسلمت عندئذ لهم .

ولحماية السور ولمنع العدو من الوصول اليه والدنو منه ، يحفر خندق حوله ، ليمنع الغزاة والمحاربين من الوصول اليه . يحفر عميقاً وعريضاً جهد الامكان ، فعلى عرضه ومقاومته تتوقف مقاومته للعدو . ولما حاصر المشركون المدينة ، أمر الرسول بحفر خندق حولها ، ليمنع المشركين من الوصول اليها . وقد ذكر : أن سلمان الفارسي ، هو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق ، بعد أن تباحث مع أصحابه في الوسائل التي يجب اتخاذها لحماية المدينة . وزعم أهل الأخبار : أن أهل الحجاز لم يكن لهم علم بالخنادق ، وأن المسلمين كانوا في قلق شديد وخوف من تغلب قريش عليهم ، فذكر سلمان لهم طريقة أهل بلاده في الدفاع عن مدنهم ، فأخذوا برأيه . فلما رأت قريش الخندق ، عجزت عن اقتحامه ، ونجت يثرب منهم به . وزعموا أيضاً : أن لفظة الخندق ، هي لفظة معربة عن الفارسية. وإذا أخذنا برأي هؤلاء أصحاب الأخبار ، وجب اعتبار تأريخ دخولها الى العربية منذ هذا الحادث إذن . ويطلق العبرانيون لفظة (حيل) ، أي حائل، على الخندق[1] .

وأنا أشك كثيراً في موضوع جهل أهل مكة والمدينة بأمور الخنادق ، وفي قصة أن (سلمان الفارسي) كان أول من علم المسلمين حفر الخنادق ، وذلك لأن أهل اليمن كانوا قد أحاطوا مدنهم بالخنادق لتعوق المهاجمين عن بلوغ الأسوار ، كما أن أهل فلسطين كانوا يحيطون مدنهم بالخنادق أيضاً ، وقد كان لأهل الحجاز اتصال وعلاقات بالمكانين وبالعراق أيضاً ، وقد زاروا مدناً أحيطت بالخنادق ، فلا يعقل أن يكونوا على غفلة من أمرها . والظاهر أن الرسول كان قد جمع أصحابه حين داهمه المشركون ليستشيرهم بصورة عاجلة في كيفية الدفاع عن (يثرب) بعد أن هددها الكفار ، فبين كل صحابي رأيه ، وكان من رأي (سلمان)

---

١ Smith, Dictionary, I, p. 615.

حفر خندق ليحول بينهم وبين دخول المدينة ، فأخذا الرسول برأيه ، وحفر الخندق ، وبه سميت المعركة (معركة الخندق) . فصوّر (سلمان الفارسي) ، وكأنه أول من علم أهل الحجاز حفر الخنادق .

ويظن أن لفظة (خبزت) التي ترد في النصوص المعينية وغيرها إنما تعني (خنادق) ومنخفضات صنعت لحماية الأسوار والمتاريس والقلاع حتى تمنع العدو والمهاجمين من الدنوّ منها [1] .

وتؤدي لفظة (صحفت) معنى خندق أيضاً [2] . وربما تؤدي معنى حاجز مائي يملأ بالماء حتى يمنع المهاجمين من الدنو الى الموضع المحصن .

وقد كان الأغنياء وأهل القرى والمدن يستخدمون رقيقهم في الدفاع عنهم . وقد كان أهل مكة مثلاً قد جعلوا من أحابيشهم قوة عسكرية تحارب معهم وتقاتل عنهم بأسلحتهم وبطريقة قتالهم التي ألفوها في بلادهم، مثل القتال بالحراب، أو الرمي بالنشاب . وقد عرف هؤلاء بالأحابيش . ولعلّهم استخدموا الرقيق الأبيض المجلوب من بلاد الروم ومن أماكن أخرى في تنظيم أمور الدفاع وإدارة القتال لخبرتهم ودرايتهم في أساليب القتال المدنية ، كالذي فعله الرسول من استشارته سلمان الفارسي في أمر الدفاع عن المدينة يوم حاصرتها قريش ، فكان أن أشار عليه بحفر خندق حولها يعوق تقدم قريش من المدينة ، ففعل كما يشير الى ذلك أهل السير والأخبار .

والمصانع الأبنية وقد وردت (مصانع) في الآية الكريمة : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »[3] . بمعنى الحصون المنيعة . و (مصنعت) (مصنعة) في الحميرية بمعنى حصن . وذلك كما في هذه الجملة المقتبسة من نص (أبرهة) المدوّن على سد مأرب : (مصنعت كدر) ، أي (حصن كدر)[4] . ولا تزال لفظة (مصنعة) مستعملة حتى اليوم في العربية الجنوبية في معنى قلعة وحصن[5] . وقد اشتهرت حمير بمصانعها .

---

١ نقوش خربة معين (ص ٢) .
٢ نقوش خربة معين (ص ٥) .
٣ الشعراء ، الاية ١٢٩ .
٤ راجع السطر (٢١) من النص ، والجمع (مصنع) ، أي (مصانع) في السبئية :
Jamme 578, 629, Mahram, p. 440.
٥ Hadramaut, p. 63.

والمصانع: القرى[1]. ويظهر أنها إنما دعيت بذلك لوجود المصانع بها. واحدتها: مصنعة. أي حصن. يدافع به عن المتجمعين حوله.

و (القلعة) على ما يظهر من أقوال علماء اللغة، الحصن على الجبل، والحصن الممتنع في جبل، والحصن المشرف[2]. تبنى في المواضع المرتفعة لتشرف على ما تحتها، ولتراقب العدو، وتكون بها حامية، وقد يتحصن بها أهل الموضع عند دنو خطر عليهم، فيصعب على العدو الوصول اليهم، لوعورة الأرض وامتناع القلعة، وتسلط من فيها على من يريد بلوغهم، بما يطرونه به من أسلحة الدفاع.

و (الحصن) ما يتحصن به. يتخذ في مواضع حصينة، مثل المرتفعات وعلى الأنهار وعند الآجام؛ لزيادة حصانته، وقد يتخذ في مواضع خطرة مكشوفة ليدافع عنها. فيحصن بتحصينات قوية من سور متين وجدر سميكة ومتاريس وأبراج، لتصد من يريد مهاجمته. وتكون الحصون برية وبحرية[3]. ولا تزال آثار حصون جاهلية قائمة في مواضع من جزيرة العرب، صنع بعض منها من (اللبن) والطين، وذلك في البوادي وفي المواضع التي لا تتوفر بها الحجارة، والمواضع الفقيرة التي صعب على أهلها بناء حصونهم من الآجر.

و (البرج) الحصن، وقيل: بروج سور المدينة والحصن: بيوت تبنى على السور؛ وقد تسمى بيوت تبنى على نواحي أركان القصر بروجاً[4]. وتكون البروج مرتفعة. وقد تبنى منفردة، ولكن الأغلب بناؤها على الأسوار. والكلمة من الألفاظ المعربة عن اليونانية[5].

---

١ اللسان (٨/٢١١)، (صنع). قال ابن مقبل:
أصوات نسوان أنباط بمصنعة بجدن للنوح واجتبن التبابينا
تاج العروس (٥/٤٢٢ وما بعدها)، الصحاح (٣/١٢٤)، القاموس (٣/٥٣).

٢ اللسان (٨/٢٨٠ وما بعدها)، (قلع)، تاج العروس (٥/٤٨٠)، (قلع)، الصحاح (٣/١٢٧١).

٣ تاج العروس (٩/١٧٩)، (حصن)، اللسان (١٣/١١٩)، (حصن)، القاموس (٤/٢١٤)، جمهرة اللغة، للأزدي (٢/١٦٥).

٤ اللسان (٢/٢١٢ وما بعدها)، تاج العروس (٢/٧)، (برج)، القاموس (١/١٨٥)، الصحاح (١/٢٩٩).

٥ غرائب اللغة (٢٥٤).

وكان يهود الحجاز قد ابتنوا الحصون والآطام ، للدفاع عن أنفسهم وأموالهم في السلم والحرب . فكانوا يخزنون فيها أموالهم وحصادهم وثمرهم وكل غال ثمين عندهم ، وكانوا يدخلون اليها عند الظلام ، فينامون فيها ، خشية غزو أحد لهم، واعتداء غريب عليهم . فإذا طلع الصبح ، خرجوا الى مزارعهم ومواضع عملهم للاشتغال فيها الى وقت المغيب . وكانوا يدخلون اليها حيواناتهم كذلك خشية سلبها ونهبها . أما في الغزو وفي القتال، فكانوا يعتصمون بها ويقذفون مهاجمهم بالصخور والحجارة وبوسائل الدفاع الأخرى من أعالي الحصون ومن الأبراج المشيدة فوقها. وقد وردت في كتب السير والتأريخ أسماء عدد من حصون اليهود في خيبر وفي أماكن أخرى وذلك في غزوات الرسول ليهود[1] .

ويعبر عن الحراس الذين يحرسون شيئاً ويدافعون عنه ، مثل حراس الحصون والقلاع وأبواب المدن أو حرس الضباط والكبار بلفظة (مسجت) (مسكت) (مسكة) في السبئية . أي في معنى (الماسكة) ، وأما المفرد فـ (مسج) (مسك) ، أي الماسك[2] .

وقد استعمل الجاهليون آلات القذف والرمي وآلات الهدم الثقيلة في حروبهم كما يفعل الناس لهذا العهد . وهي آلات تبدو بسيطة مضحكة بالنسبة إلى آلات الخراب والتدمير المستعملة في الزمن الحاضر . قد يخجل الانسان من التحدث عنها لأبناء هذا الزمان ، ولكننا حين نتحدث عن الماضي وعن الأناس الماضين ، فإننا لا نتحدث عنهم كما نتحدث عن أناس زماننا ولا نقيس انتاجهم على انتاجنا ، وذلك لوجود فارق دقيق هو فارق الزمن . وهذا الفارق هو التطور الكبير الذي يقع للانسان كلما تقدم به الزمان ومرت عليه التجارب والاختبارات التي يطور الإنسان بها نفسه دوماً ويزيد في علمه علماً جديداً لم يكن معروفاً عند القدماء . وسيأتي زمان تكون فيه اختراعات القرن العشرين ، الاختراعات التي نفخر بها اليوم ، ألاعيب أطفال بالنسبة الى اختراعات ذلك الوقت ، واختراعات ذلك الزمان ألاعيب أطفال بالنسبة الى من يأتي بعدهم ، وهكذا إلى آخر الزمان . ولهذا لا نستطيع قياس الماضي على الحاضر بما أوجده من اكتشافات واختراعات على هذا

---

١ السيرة الحلبية (٢/٤١) .

٢ Jamme 649, Mahram, p. 440.

النحو . وإنما نتحدث عن الماضي على أنه مرحلة من مراحل التطور البشري،ودور مستمر لهذا التأريخ الذي لا نعرف مبدأه ولا منتهاه .

وفي جملة هذه الآلات ، الدبابة . وهي عبارة عن خشبة ثقيلة تعلق من وسطها ببرج من خشب مقام على عجلات ليمكن تحريكه نحو الهدف المراد هدمه أو سحبه منه أو نقله الى أي مكان آخر . وقد غطى رأس الخشبة المتجه نحو الخـــارج ، أي الرأس المتخذ للهدم ، بغطاء من الحديد ، ليكون سريعاً فعالاً في هدم المكان الذي يوجه اليه . ويقوم أشخاص يكمنون في الدبابة بتحريك الخشبة نحو الهدف ، وذلك بتحريكها نحو الأمام والخلف بقوة ، لتحدث ثغرة فيه ويختفي هؤلاء تحت ستار مثل سقف من خشب أو من جلود ، ليحميهم من الحجارة أو السهام أو النيران أو المواد الساخنـــة التي يرميها المدافعون عليهم ، لمنعهم من الاقتراب من السور ، ومن هدمه . وقد أشير الى هذه الدبابات في فتح المسلمين لخيـــبر وفي حصار الطائف ، فذكر أن اليهود كانوا قد اختزنوا في حصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات[1] . وذكر أن المسلمين لمـــا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر منهم تحت دبابة ، ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً[2] .

وقد يكتفي المحاربون بسحب خشبة ضخمة نحو السور تحمل بعد ذلك عـــلى الاكتاف ، فيضرب بها السور ، ثم يتراجع حاملوها قليلاً ثم يتقدمون ليضربـوا بها السور ، وهكذا الى أن يتمكنوا من أحداث ثغرة فيه . و (القفع) ، ضبر تتخذ من خشب يمشي بها الرجال الى الحصون في الحرب . وقيل هي الـــدبابات التي يقاتل تحتها[3] .

واستخدم (الكبش) في القتال،استخدم في اليمن بصورة خاصة ، استخـدم سلاحاً من الأسلحة الثقيلة في قتال المدن والجيوش النظامية، وهو من خشب مكسو

---

١ السيرة الحلبية (٣/٤١) ، نهاية الارب (١٨/٥٩) ، تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (الكويت) ، اللسان (١/٣٧١) .

٢ ابن هشام (٤/١٢٧ وما بعدها) .

٣ اللسان (٨/٢٨٩) ، (قفع) .

بجلود البقر مدبوغة بالقرظ ، أو من جلود الإبل . يحتمي به المحاربون المشاة في هجومهم على الأعداء المتحصنين .

وقد وردت لفظة (كبش) في قول الشاعر (الحارث بن حلزة اليشكري):

حول قيس مستلئمين بكبش قـرظي كأنـه عبـلاء

وفسرت لفظة (الكبش) المذكورة بـ (السيد)[1] وهو تفسير أرى أن فيه تكلفاً واضحاً وبعداً من المعنى ، وأن الصواب هو أنها الآلة الحربية المذكورة ، وأن الشاعر أراد ببيته المذكور وصف جماعة (قيس بن معديكرب) الذين كانوا ملتفين حوله ، مستلئمين بكبش من جلود سميكة غليظة مدبوغة بالقرظ ، مرتفع عال حتى علباء ، أي هضبة من ارتفاعه . والكبش بالنسبة للأعراب من الأسلحة التي يقل استعمالها عندهم ، وهي من الأسلحة المانعة المؤثرة ، ولذلك ذكرها الشاعر في شعره . وقد جاء بها (قيس) من اليمن ولا شك[2] .

ومن آلات القذف والرمي الى مسافـات ، المنجنيق . ويوضع فوق الأسوار لاستخدامه في رمي العدو المتقدم نحو الحصن ، أو في السفن لرمي سفن الأعداء، أو في الأبراج أو في الخطوط الأماميـة لرمي الأعداء المهاجمين . فهو في مقام المدفعية لعهدنا . وقد ورد في أخبار حصار المسلمين للطائف أن الرسول رمى أهل الطائف بالمنجنيق ، وكان أول من رمي في الإسلام بالمنجنيق على إحدى روايات أهل الأخبار[3].وورد أن اليهود كانوا يستعملون المنجنيق في الدفاع عن حصونهم[4] .

ويرجع بعض أهل الأخبار تأريخ استعمال المنجنيق في الجاهليـة الى (جذيمة الأبرش) ، فهم يذكرون أنه أول من رمى بالمنجنيق[5] .

والعرّادة من آلات الحرب كذلك ، وهي صغيرة شبه المنجنيق[6] .

---

١ شرح المعلقات السبع ، للـزوزني (ص ١٦٤) (دار صـادر) ، تاج العروس (٤/٣٤١) ، (كبش) ، اللسان (٦/٣٣٨) ، (كبش) ، الصحاح (٣/١٠١٧) .

٢ المعاني الكبير (٤/٧٩) .

٣ ابن هشام (٤/١٢٨) ، نهاية الأرب (١٨/٥٩) .

٤ السيرة الحلبية (٣/٤١) .

٥ الروض الأنف (٢/٣٠٣) .

٦ اللسان (٣/٢٨٨) ، نهاية الأرب (١٨/٥٩) .

وقد عرف السور بالحائط كذلك . والحائط هو ما يحيط بالشيء . وقد دعي سور الطائف بحائط الطائف في بعض كتب السير ، وذلك لأنه يحيط بالمدينة . وقد كانت به أبواب تغلق في الليل . ولما اقترب منه المسلمون رماهم المدافعون عنه بالسهام ، وكانوا يكمنون فوقه فقتل أناس من المسلمين[1] . ويكون أعلى الجدار الخارجي عالياً وبه فجوات صغيرة ليكمن وراءه المدافعون ولينظروا من خلال هذه الفجوات الأعداء ، ولير موهم منها . ويبنى السور سميكاً في أسفله ، ثم يقل سمكه في أعلاه وذلك ليكون من الصعب على المهاجمين احداث فتحة فيه أو هدمه . ويكون عرضه في أعلاه كافياً لاختباء المدافعين ولمرورهم بسهولة . وتبنى أبراج في العادة فوقه للمراقبة ولرمي الأعداء ، يختلف عددها باختلاف المدن، وباختلاف استطاعة البلدة وما تتخذه من وسائل لحماية نفسها من الأعداء .

ولحمل أهل المدن والقرى المحصنة على الاستسلام يتخذ المهاجمون أساليب الحيل ووسائل مختلفة للتضييق عليهم ، وفي جملة ذلك قطع المياه عن المكان المحاصر إن كان الماء في خارجه . وذلك بسدّ المجرى وتخريب الآبار والإحاطة بالماء لمنع الناس من الدنوّ منه ، وبحرق المزارع والبساتين الواقعة في خارج المكان المحاصر، أو بقطع أشجارها ، وبأخذ الغلاّت،وبقطع كل اتصال للمكان بالخارج، وبالتشدد في ذلك حتى يضطر المحاصرون الى الاستسلام أو عقد صلح مع المهاجمين . وقد كانت خطة حرق المزارع والبساتين من أهم العوامل المؤثرة على المحاصرين . وذلك نظراً للخسائر المادية التي تلحقهم والتي لا يمكن تعويضها إلا بجهود وبأتعاب السنين[2] .

ولجأ المحاربون الجاهليون الى سياسة حبس الميرة عن القبائل أو القرى والمدن لاخضاعهم واجبارهم على ترك المقاومة والاستسلام[3] . يفعلون ذلك كما تفعل الدول الحديثة في مقاطعة بعض الحكومات في الحرب وفي السلم لاجبارها على ترك سياستها أو على الاستسلام . وقد قاطعت قريش بني هاشم حينما دخلوا في الشعب لاجبارهم على ترك الرسول وخذلانه على نحو ما هو معروف .

---

١ ابن هشام (٤/١٢٧) ، اللسان (٧/٢٧٩) ، القاموس (٢/١٨٥) .

٢ Smith, Dictionary, I, p. 1724.

٣ الاغاني (١٦/٧٦) .

كما وجهوا خططهم السوقية نحو النقاط الضعيفة من مواضع الدفاع للمكان الذي يراد الاستيلاء عليه ، مثل الأبواب والثلم التي قد تكون في الأسوار أو الحصون للاستفادة منها في مهاجمته . والأبواب ، هي من أهم الأهداف بالنسبة للمهاجم، لذلك ، تتخذ مختلف الوسائل للتغلب عليها ، برميها بالنار ، أو بالحجارة ، أو بضربها بالدبابات والأقفاع.أو باستخدام السلالم أو الحبال لارتقاء المواضع المنخفضة من السور ، كما يركن الى حفر الأنفاق تحت السور ، للدخول منها الى الموضع المحاصر ، وقد يعمد الى صنع تل من تراب ، أو الى تكويم أحجار بعضها فوق بعض ، أو بناء مرتفع يصل الى علوّ السور أو أعلى منه ، ليرمي منه الأحجار والقذائف على المحاصرين،فيكون في امكان المهاجمين ، مهاجمة السور من الأرض بارتقائه من الموضع المقابل للمرتفع ، او بعمل ثقب فيه ، يدخل المهاجمون منه الى الداخل ، وبذلك ينقل المهاجم الحرب الى داخل الموضع المحاصر ويتمكن من التغلب عليه .

أما النظم العسكرية عند أهل اليمن ، فكانت على هذا النحو : الملك ، هو القائد الأعلى للجيش ، والرئيس الأعلى له ، يعلن الحرب ، ويأمر بعقد الصلح، ويعين القادة الذين يتولون إدارة القتال ، لضمان النصر ، وهو الذي يأمر القبائل بتقديم الجنود ، على مقدار ما اتفق عليه .

وقد يقوم الملك نفسه بقيادة الجيوش واجراء العمليات الحربية ، وقد يترك ذلك الى قوّاده ، يقومون بها ويديرونها بحسب علمهم وخبرتهم بالحروب . والقائد هو (قسد) أي (قاسد) في لغتهم . وقد يعبر عنه بـ (اسد) في بعض الأحيان ، إلاّ أن هذه اللفظة تعني (الجندي) و (الجنود) في الغالب .

وكان على المحارب أن يهيء له سلاحه ، فإذا لم يكن لديه هذا السلاح منح مالاً لشرائه به ، يتعهد بإعادته فيما بعد[1] . وكان على القبيلة أن تهيء المقاتلين اللازمين للقتال ، وترسلهم الى جبهات القتال للقتال مع الجنود الآخرين .

ولسنا نعلم كيف كان يقاتل العرب الجنوبيون ، وكيف كانوا يضعون خططهم الحربية في التغلب على العدو ، لعدم تعرض كتابات المسند لذلك ، فلم يرد الينا نص ما في هذا الموضوع .

---

١ Handbuch I, S. 137.

ويعبر عن الصلح بلفظة (سلم) ، وهي في معنى (سلم) في عربيتنا . فالسلم هو الصلح الذي يلي الحرب بعد الانتهاء منها ، كما انه السلم في الأوقات الأخرى أي الأوقات الاعتيادية[1] .

ويعبر عن الحذر من العدو بلفظة (حذر) ، وهي تؤدي معنى الدفاع كذلك، فـ (حذر) تعني دافع ضد عدو[2] . واذا سار شخص ما خلف زعيم أو قائد، يقال لذلك (تبع) و (تبعو)[3] بمعنى سار مع القائد وساروا في حرب مثلاً ، وتقدم أو تقدموا نحو العدو .

ويعبر عن التراجع والانسحاب بلفظة (ضوم) (ضوى) ، وتعني الهزيمة كذلك[4] . وهي نقيض معنى (متسك) التي تعني التمسك بالشيء والاستيلاء عليه . و (امتسك بـ)[5] . ويعبر عن الهزيمة بلفظة (سحت) كذلك[6] . كما يعبر عنها بلفظة (تشوع)[7] .

وقد يتبع المحاربون طريقة حرب العصابات ، وذلك بـأن ينقسم الجيش الى أحزاب وفلول مستقلة تنتشر في أماكن متباعدة ، وتقاتل بمفردها أو تتعاون فيما بينها عند الحاجة ، وهي تحمي نفسها بالالتجاء الى المواضع الطبيعية الحصينة مثل المستنقعات والأدغال والجبال وأطراف الممرات الوعرة ، وذلك لكي تخفي نفسها عن العدو فلا يراها إلا وهي مباغتة له . ويقال للعصابة هذه : (حزب) في السبئية ، وأما الجمع فـ (احزب)[8] .

وتتبع الطريقة المذكورة عندما يواجه عدو عدواً يرى انه لا يستطيع الوقوف أمامه ومحاربته ، أو في حالة التريث والانتظار إلى ساعة مجيء مدد وعون ، أو في

---

١ راجع النص الموسوم بـ Glaser 481, Rhodokanakis, Stud. II, S. 15, 55, Jamme 556, 557, 576, 577, 643, 652, Mahram, p. 443.

٢ راجع الجملة الثالثة من نص أبنة . Mahram, p. 436, Jamme 649, 720.

٣ Mahram, p. 436, Jamme 649, 720.

٤ Rhodokanakis, Stud., II, S. 53.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 52.

٦ Jamme 578, 643, Mahram, p. 443.

٧ Jamme 649, Mahram, p. 450.

٨ Jamme 574, 576, 577, 585, Mahram, p. 436.

حالات الهزيمة . فتشتت القوات المغلوبة قواتها إلى (أحزاب) وتشغل جيش العدو المتفوق عليها بجبهات عديدة لغاية إرباكه واضعاف قوته ، وتبقى تحارب حرب عصابات حتى ترى رأيها الأخير ، فتقرر الصلح أو الاستسلام وقد تجمع فلولها ثانية وتظهر مرة أخرى في ميدان قتال جديد ، ففي كتابات المسند أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

وقد وردت في النصوص المعينية لفظة (غزتس) بمعنى غزوة ، كما في هذه الجملة : (غزتس عم مسبا)[1] ، بمعنى (في غزوته مع المسبين) . ويظهر ان هذا النص قد دوّن في غزاة قام بها صاحب النص ، وقد أخذوا معهم جماعة من السبي . وهذا النص هو من النصوص المعينية التي عثر عليها في مدائن صالح .

ويقال للحواجز التي يضعها المحاربون في شوارع المدينة أو في الطرق أو التي يقيمونها في ساحات المعارك لإعاقة حركات العدو (حجزت) ، أي (حاجزة)[2] . ولا تقتصر عمل هذه الحواجز على الأغراض العسكرية وحدها بالطبع ، بل تقام لأغراض عديدة أخرى ، مثل الحواجز التي تقام لحجز المواشي والحيوانات وما شابه ذلك .

ولا يشترط بالطبع في الحواجز أن تكون عالية مرتفعة أو قائمة عريضة ، فقد تكون منخفضة وعندئذ تكون على هيأة موانع لإعاقة الانسان أو الحيوان من المرور. وقد تكون خندقاً يحفر حول المدينة أو حول مكان يراد حمايته ومحافظته من التطاول عليه . فيقف هذا الخندق حاجزاً مانعاً يمنع الجنود والجيوش من التقدم نحو الهدف أو المدينة أو الموضع الذي يراد الاستيلاء عليه . ويقال له عندئذ (خبزت) وبهذا المعنى عرف في كتب اللغة ، فقد ورد في القاموس المحيط (خ ب ز) : (خبز) الرهل والمكان المنخفض المطمئن من الأرض[3] .

وقد بنى اليمانيون حصونهم في الهضاب والمرتفعات والجبال ، ليكون من السهل الدفاع عنها . وحول هذه الحصون وبحمايتها بنى الناس بيوتهم ، فتحولت هذه الأماكن المحماة بالقلاع والحصون إلى مواضع حصينة تدافع عن نفسها وترمي من

---

١ REP. EPIGR. 3604.

٢ راجع الفقرة الثانية من النص : Glaser 1150, Halevy 192, 199

٣ تاج العروس (٤/٣٢) ، (خبز) ، اللسان (خ/ب/ز) ، خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين (الصفحة ٢) .

يحاول الوصول اليها بالسهام وبوسائل الدفاع الأخرى ، فيتكبد المهاجم خسائر ، ويلاقي صعوبات كبيرة في الوصول اليها. ويقال لمثل هذه الحصون والقلاع (محفدن) و (محفدم) والأولى معرفة والثانية منكرة[1] .

وتزود الحصون بكل وسائل الدفاع وما يحتاج اليه أصحابها والمدافعون عنها من ماء وزاد ووسائل دفاع . ولهذا نجد في الحصون آباراً ومخازن للمياه، ليستفيد منها المدافعون[2] ، ولا يتمكن المهاجمون من منع الماء عنهم . أما الزاد ، فيخزن في العادة في مخازن خاصة لهذه الغاية أيضاً . وأما وسائل الدفاع فتكون بانشاء أبراج فوق أسوار الحصن ، يكمن فيها المدافعون لرمي العدو منها ، وببناء فتحات صغيرة رفيعة لمراقبة العدو منها ، ولرميه بالسهام .

ومن وسائل الدفاع التي لجأ اليها أهل العربية الجنوبية لإعاقة المحاربين من التقدم نحو هدفهم ، انشاء حواجز على هيأة جدر تبنى في المضيقات والممرات ، بحيث اذا وصل اليها العدو لم يتمكن من الاستمرار في سيره نحو عدوه ، فينهال عليه حماة تلك الحواجز بالحجارة والسهام وما شاكل ذلك من أسلحة .

وترى بقايا مثل هذه الجدار في مواضع عديدة من اليمن وحضرموت حتى اليوم . ومن جملة ما عثر عليه بقايا جدار أقيم في وادي (لبنا) شمال ميناء حضرموت القديم (قنا) (قانه) (قني) . أقامه حكّام حضرموت المكربون قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وذلك لحماية حضرموت من غزوات الحميريين وغيرهم . وعثر على بقايا جدار في القسم الجنوبي من (وادي بيحان) ، وعلى بقايا جدار آخر يقع في (وادي أنصاص) جنوب (شبوة) ، وذلك لحمايتها من الغارات[3] .

والنصر ضد الهزيمة . وترادفها لفظة (شرح) في اللهجات العربية الجنوبية ، كما في هذه الجملة (يوم شرح سبا) ، أي (يوم نصر سبأ)[4] .

وبعد انتهاء الحرب توزع الغنائم بين المحاربين المنتصرين ، ويعطى الرئيس إذا

---

١ (تعلى محفدن يهر) ، أي (تعلية حصن يهر) ، خربة معين ، النقش ٤ .
٢ ابن المجدرر : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (٢/١٧٣) .
٣ Beiträge, S. 44, 46.
٤ REP. EPIGR., VII, II, p. 276, NU: 4624.

غنم الجيش معه (المرباع) أي ربع الغنيمة [1] . وقد رده الإسلام خمساً ، بنزول الأمر بالخمس في القرآن الكريم [2] .

واذا وقع أحد في أيدي عدو وأسر فيقال له عندئذ (أسير) . ويعبر عنه بـ (اخذ) في السبئية في حالة المفرد ، وبـ (اخذتم) (أخذت) (اخذيت) في حالة الجمع [2] . وتطلق هذه اللفظة على الأسرى الذين يقعون في الأسر من دون قتال ، وذلك عند اكتساح جيش أو غزاة جيش العدو أو مكان ما ، فيؤخذ من فيه من ناس من غير قتال ولا مقاومة . فهم مثل الغنائم التي تقع في أيدي الغزاة والمحاربين يؤخذون دون قتال . أما الذين يؤخذون بعد مقاومة وبقتال ، فيقال لهم : (سبيم) أي (سبي) ، بمعنى (مسبي) . وأما الجمع فـ (اسبي) أي سبايا . وأما الإسباء فيعبر عنه بـ (يسبيو) ، وتعني (يسبي) و (يسبون) [3].

وكانوا يكبّلون أيدي الأسرى والسبي بـ (الكبل) . القيد من أي شيء كان ، وذلك لاحتباسهم حتى لا يهربوا . وقد ذكر بعض علماء العربية (أن الكبل غير عربي .. وقد صرح به أقوام) [4] . ولفظة (كبل) هي (كبلو) Keblo و (كيبل) Kébél في لغة بني إرم وفي العبرانية ، أي (القيد) [5] . وقد كانوا يكتّفونهم بالحبال وبكل شيء يكون عندهم يشد به وثاق الأسير ، فلا يفلت من أسره . و (الكتاف) الحبل [6] . و (الوثاق) ما يشد به كالحبل وغيره [7] . كما كانوا يكتّفون الأسرى بالقدّ . والقد السير الذي يقدّ من جلد،فتشد به أطراف الأسير شداً شديداً حتى لا يتمكن من الهروب .

ولما بعث رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت بـ (ثمامة بن أثال الحنفي) سيد أهل اليمامة مأسوراً ، أمر به رسول الله ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ثم منّ عليه فأطلقوه وأسلم ، لأنه لم يكن في زمن الرسول سجن . فكانوا يحبسون

---

١ شرح ديوان لبيد (ص ٣٠) ، العقد الفريد (٣/٣٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٣٣٩) ، (ربع) .

٢ Jamme 576, 578, 635, Mahram, p. 427, South Arabian Inscriptions, 649, 665, 649.

٣ Mahram, p. 443.

٤ تاج العروس (٨/٩٣) ، (كبل) .

٥ غرائب اللغة (٢٠٣) ، Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 5.

٦ تاج العروس (٦/٢٢٩) ، (كتف) .

٧ تاج العروس (٧/٧٣) ، (وثق) .

الأسير في المسجد أو في الدهليز حيث أمكن . فلما كان زمن (علي بن أبي طالب) أحدث السجن بالكوفة ، وكان أول من أحدثه في الاسلام[1] . وذكر ان (ثمامة) كان عرض لرسول الله ، فأراد قتله ، فلما قبض عليه أسلم ، فلما أسلم قدم مكة معتمراً ، فقال : « والذي نفسي بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ، وكانت ريف أهل مكة ، حتى يأذن رسول الله » . ورجع إلى اليمامة ومنع الميرة عن قريش . وقد ثبت على إسلامه ، لما ارتد أهل اليمامة ، وارتحل هو ومن أطاعه من قومه ، فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي ، فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلّة كانت لكبيرهم فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا انه هو الذي قتله وسلبه فقتلوه[2] . وكان له عم اسمه (عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد دخل في الاسلام[3] .

ويسبق المبشرون الجيش المنتصر بزف خبر النصر للحكام وللناس . يسرعون بأقصى ما يمكنهم من السرعة لنقل النبأ ، ولنيل جوائز البشرى . وهي (البشارة) ما يعطاه المبشر[4] . ويعبر عن البشرى بـ (تبشرت) في العربية الجنوبية ، أي (التبشرة) . ويقوم الـ (هبشر) ، أي المبشر بإبلاغ البشرى لمن يراد ايصالها اليه .

ويعبر عما يقع في أيدي المغيرين أو المحاربين أو الغزاة أو المنتصرين من أموال بـ (مهرج) ، أي غنيمة حرب ، وذلك للمفرد وبـ (مهرجت) (مهرجة) في حالة الجمع ، أي غنائم[5] .

وتطلق هذه اللفظة على الغنائم التي تؤخذ بقتال وبعد مقاومة ، أما الغنائم التي يحصل عليها المحاربون بعد القتال وبعد الهزيمة التي تنزل بالمغلوب ، فيقال لها (غنم) و (غنم) وذلك في المفرد، أي للغنيمة الواحدة ، وأما في حالة التعبير عن الجمع فيقال (غنمت) ، أي غنائم[6] .

ونظراً الى ما للمنزلة الاجتماعية من أهمية كبيرة في المجتمع العربي ، لذلك كان

---

١ صحيح مسلم (١٥٨/٥) .
٢ الإصابة (٢٠٤/١) ، (رقم ٩٦١) .
٣ الإصابة (٢٤١/٢) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٤ تاج العروس (٤٤/٣) ، (بشر) .
٥ Mahram, p. 439.
٦ Mahram. p. 445

الشريف يسأل من يريد أسره عن اسمه ونسبه ، حتى إذا وجد أنه من العبيد والموالي أبى الاستسلام له،لأن في استسلام الرجل لمن هو دونه في المنزلة والمكانة مذلة كبرى وإهانة ، ولهذا كان الرجل الذي يشعر أنه في وضع حرج وأنه مأسور لا محالة يبقى يراوغ خصمه ويحاول الافلات منه ومن أسره جهد امكانه حتى آخر نفس له ، وقد يسأل شخصاً آخر يرى عليه امارة الوجاهة والشرف بأن يأسره خشية الفضيحة والعار من وقوعه أسيراً في يد عبد جلف ، أو صعلوك لا مكانة له في المجتمع . ومن ذلك ما وقع لحاجب بن زرارة ، إذ أدركه الزهدمان ، فقالا له : استأسر وقد قدروا عليه ، فقال : ومن أنتما ؟ قالا ، الزهدمان . فقال : لا أستأسر اليوم لمولين . وبينما هم كذلك ، إذ أدركهم مالك ذو الرقيبة ابن سلمة من قشير ، فقال لحاجب : استأسر ، فقال : ومن أنت ؟ قال أنا مالك ذو الرقيبة فقال : أفعل فلعمري ما أدركتني حتى كدت أكون عبداً . فألقى اليه رمحه واعتنقه زهدم عن فرسه فصاح حاجب واغوثاه ، ثم تخاصم مالك والزهدمان في شأن أسر حاجب ، واجتمع القوم وحكموا حاجباً في أمر من أسره، فاختار مالك ، وحكم له ، وذلك لأنه كان حراً شريفاً . ثم فك أسره ، بأن أعطى فدية عن نفسه لمالك وفديتين أصغر منها الى الزهدمين[1] .

ولم تكن (المثلة) بقتيل الحرب أو بالأسير محرمة في قوانين ذلك اليوم . فقد كانوا يمثلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم ، وتشويه الجسم . يفعلون ذلك بالأسير حتى يموت ، وهو يشاهد أعضاءه تقطع قطعاً من جسمه . وفي (يوم الرقم) انهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه ، فيهم (خوات ابن كعب) حتى انتهوا الى ماء يقال له : المرورات : فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق الحكم بن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عُروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أعذرا[2]

والقاعدة في الغزو والحروب والغارات ، أن القاتل يأخذ سلب المقتول . يأخذ ما يجده عنده ، وقد أقر ذلك في الإسلام ، فجعل السلب للقاتل لا ينازعه في

---

١ الاغاني (١٠/٣٧) .

٢ نهاية الأرب (١٥/٣٦٤) ، (يوم الرقم) .

ذلك منازع ، إن ثبت أنه هو القاتل[1] .

والحروب من أهم الموارد المؤونة للرقيق عند الشعوب القديمة ، وفي جملتهم الجاهليين . فقد كان المنتصر يتخذ من يقع في يده رقيقاً له ، واذا لم يمنّ عليه بالعفو ، أو لم يتمكن المأسور من دفع فدية عن نفسه ، صار عبداً مملوكاً لمن وقع في يده ، إن شاء باعه ، وإن شاء احتفظ به رقيقاً ، يخدمه ما دام عبداً .

وقد عمد المحاربون إلى إحراق المغلوبين في بعض الأحيان . فقد جمع المنذر ابن امرىء القيس أسرى في الحظائر ليحرقهم ، فسمي أبا حوط الحظائر[2] .

وقد عرف بعض ملوك الحيرة بحرق من وقع في أيديهم من المغلوبين ، أو بحرق مواضعهم وهم فيها لذلك عرفوا بـ (محرق) . وعقوبة الحرق من العقوبات المعروفة عند الأمم القديمة مثل الرومان والعبرانيين ، ينزلونها في المحاربين جزاءً لهم ، وإخافة لغيرهم ودعاية لهم،حتى لا يتجاسر أحد فيعلن الثورة على المحرقين، فيحل عندئذ بهم عذاب التحريق[3] .

وكان بعض الأشخاص يقومون بالغارات بمفردهم أو بجمع من الناس،فيفاجئون الناس الآمنين أو رجال القوافل ، ومن هؤلاء : شراحيل بن الأصهب ، وكان كما يقول أهل الأخبار أبعدَ العرب غارةً ، كان يغزو من حضرموت إلى البلقاء في مئة فارس من بني أبيه ، فقتله بنو جعدة . وكان قد أزعج قبائل معد وغيرها كما يظهر ذلك من شعر نابغة بني جعدة :

أرحنا معدّاً من شراحيل بعدما أراها مع السبح الكواكب مظهرا
وعلقمة الحراب أدرك ركضنا بذي الرمث إذا صام النهار وهجرا[4]

وقد يعمد المنتصر الى أخذ رهائن من المغلوب لتكون رهناً لديه بالطاعة والخضوع . فإذا خاس بعهده ، تعرضت الرهينة للتهلكة . وتؤخذ الرهائن في أيام السلم أيضاً . يأخذها الملوك ممن يخشونهم ومن السادات لتكون ضماناً لديهم بالطاعة وبعدم مسهم بمصالحهم . وقد عرف (الحارث بن علقمة بن كلدة بن

---

١ صحيح مسلم (١٤٩/٥ وما بعدها) .
٢ المعارف (ص ٤٢) .
٣ Beeton, Dictionary of Religion, Philosophy and Law, p. 108.
٤ العقد الفريد (٣٩٤/٣)

عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) بـ (الرهين) ، (وإنما لقب بـه لأنه كان رهينة قريش عند أبي يكسوم الحبشي . وولده النضر بن الحارث من مسلمة الفتح . وأخوه النضر بن الحارث قتله عليّ ، رضي الله تعالى عنه ، بالصفراء بعد رجوعهم من بدر بأمر من النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبنته قتيلة رثت أباها بالأبيات القافية ، وليس فيها ما يدل على إسلامها)[1] .

وللطيرة أثر كبير في نظر الجاهليين في كسب الحرب وخسرانها ، فقد رسخ في عقولهم أن لها تأثيراً مباشراً في الغزو والحروب . وان كلمة طيبة تسمع ساعة الاستعداد للغزو ، أو عطسة يعطسها إنسان ، أو نعيب غراب ينعب ساعة الهجوم أو ما شاكل ذلك من علامات يتفاءل أو يتشاءم منها ، تؤثر في مصير الغزو وتتحدث للغازين عن مصير ما سيقومون به . لذلك فقد كانوا ربما نبذوا الغزو إذا ظهر أمامهم ما يتطير منه ، وكانوا ربما أسرعوا بالهجوم إن ظهر أمامهم ما يفسرونه بأنه يمن وتفاؤل وحث على الإقدام في العمل . ولم يكن هذا الاعتقاد من عقائد العرب وحدهم ، فقد كانت الشعوب الأخرى تتطير كذلك . وتحسب للطيرة حساباً عند شروعها بحرب.ونجد في الكتب القديمة قصصاً عن الطيرة وأثرها في الحروب عند اليونان والرومان والفراعنة والفرس .

ورسخ في عقول أهل الجاهلية ان في وسع الكهنة التنبؤ عن نتائج الغزو أو الحروب ، لما للكهنة من اتصال بالأرباب وبالأرواح المخبرة عن المغيبات وعما سيقع في المستقبل . فكانوا لذلك يسألونهم في كثير من الأحايين عن رأيهم في غزو يريدون القيام به قبل الشروع به ، حتى اذا باركه الكاهن قاموا به،وإلا تركوه[2] . ونجد في كتب الأدب وأهل الأخبار أخباراً ترجع سبب هزيمة قوم أو سبب انتصارهم إلى مخالفة أولئك القوم لرأي كاهنهم ، فكانت الهزيمة ، والى العمل برأيه، فوقع من ثم لهم النصر ، لأن للكهنة علم بالمغيبات .

---

١ تاج العروس (٩/٢٢٢) ، (رهن) .

٢ الدينوري ، عيون الأخبار (١/١٤٤) ، (كتاب الحرب) ، (في الطيرة والفال) .